

# Victor Hugo

## Le dernier jour d'un condamné



لمزيد من الكتب المترجمة زوروا موقعنا  
<https://ilyas-soa.site123.me>

الفصل الأول

# قضائي

# في سجن "بستر"

محكوم على بالإعدام!

آه! ها قد مضت علي خمسة أسابيع و أنا أقيم وحدي مع هذه الفكرة، وحدي دائماً، أتجدد رهبة لوجودها معي، و أرژح تحت وطأتها على الدوام!

و قديماً، كنت رجلاً كأي رجل آخر. و أقول "قديماً" لأن هذه الأسابيع الخمسة تبدو لي و كأنها دهر طويل! كانت لدى في كل يوم فكرة، بل في كل ساعة، و في كل دقيقة، و كانت نفسي الغنية الشابة حافلة بالزوارات والتصورات، تتسلل بأن تسردها علي واحدة بعد أخرى، بلا ترتيب و بلا نهاية، و هي تطرز بالنقوش التي لا تنتهي هذا القماش الرفيع المتن الذي تنسجه الحياة.

كان رأسي وقتئذ عامراً بالفتنيات الشابات، و بملابس المطارنة البديعة، و بالمعارك الرابحة، و المسارح التي تغمرها الضوضاء والأضواء. و كان عامراً كذلك بالفتنيات الصغيرات و بنزهات في ظلام الليل الداجي تحت أغصان شجر الكستناء الطويلة. لقد كان في خالي عيد دائم و كنت أستطيع أن أفكر فيما أريد في أي وقت .. فقد كنت حر!

أما الآن فأنا أسير. فجسمي مكبّل بالحديد في زنزانة، و نفسي سجينه في فكرة مروعة دامية لا ترحم! و لم يعد لدى سوى فكرة واحدة، سوى اقتناع واحد و يقين واحد: أني محكوم على بالإعدام!

و مهما فعلت، فإن هذه الفكرة الرهيبة هنا دائماً، إلى جواري، و كأنها شبح جهنمي من الرصاص يقف غيوراً بمفرده أمامي أنا البائس، و يواجهني وجهها لووجه، فيطرد عنّي كل تسلية و يهزمي هزا عنيفاً بيدين في مثل برودة الثلج كلما أردت أن أدير رأسي أو أن أغمض عيني. إن هذه الفكرة المفزعة تتسلل إلى بكل الطرق، في الوقت الذي تريـد نفسي فيه أن تهرب منها، و تمتزج كنـغمة رهيبة بكل الألفاظ التي توجهـ إليـ، و تلتـصـقـ بيـ فيـ

أسوار زنزانتي الكنية، و تطاردني في يقظتي، و تتجسس علي في منامي المضطرب، ثم تظهر مرة أخرى في أحلامي في صورة سكين! لقد استيقظت الآن فزعا بسبيها و أنا أقول في نفسي: "إنه ليس إلا حلما!" .. حسنا! فحتى قبل أن تجد عيناي الثقلتان متsuma من الوقت كي تتفتحا تماما لترى هذه الفكرة المحتومة مكتوبة في هذا الواقع المرهون الذي يحيط بي على بلاط زنزانتي الرطب المبلل، و في ضوء مصباحي الليلي الخافت، و في نسيج ردائى الخشن الرديء، و على وجه الحراس المظلم الذى كانت "زمزميتها" تلمع من خلال القصبان الحديدية .. حتى قبل أن تجد عيناي الثقلتان متsuma من الوقت لترى كل ذلك، فقد بدا لي أن صوتا قد همس في أذني يقول: "أنت محكوم عليك بالإعدام!"

## الفصل 2

كان ذلك في صبيحة يوم جميل من أيام شهر أغسطس، و كان قد مضى على موعد بدء نظر قضيتي ثلاثة أيام. كان اسمي و جريمتى يجمعان خاللها في كل صباح جمعا غفيرا من المتفرجين، كانوا يتهاقرون على المقاعد في قاعة الجلسة كما تنهافت الغربان على جثة عفنة! ثلاثة أيام كانت استعراضات القضاة و الشهود و المحامين، و ممثلي الاتهام باسم الملك، تمر خلالها ثم تمر من أمامي، فتشير السخرية تارة، و تارة تكون دامية، و لكنها كنية و معنمة على الدوام.

و لم أستطع أن أنام في الليلتين الأوليين من أثر القلق و الرعب، و لكنني نمت في الليلة الثالثة من الضيق و الكلل. و كنت قد تركت المخلفين و هم يتدالون في منتصف الليل فأعادني الحراس إلى زنزانتي حيث سقطت من فوري على قشها في سبات عميق، في سبات النساء. فكانت هذه أول ساعة أصبت فيها شيئا من الراحة منذ عدة أيام و كنت لا أزال مستغرقا في أعمق هذا السبات عندما أتى السجان ليوقظني. و في تلك المرة، لم يكن وقع قدميه الثقلتين بحذائه الغليظ، و لا صليل رزمة المفاتيح التي كان يحملها دائما معه، و لا قرقعة الأقفال الخشان، لم يكن هذا كله كافيا

لإيقاضي، و إنما كان عليه أن يستعين بصوته الجهوري الخشن النبرات  
لينتزعني من نومي المحموم، و أن يقبض على ذراعي ليوزني بيده  
الغليظة و هو يقول لي في إرهاب:  
- قم إذن!

ففتحت عيني و انتقضت مذعورا لأجد نفسي جالسا على القش! و في تلك  
لحظة، رأيت من خلال النافذة الضيقة المرتفعة في زنزانتي، قطعة  
السماء الوحيدة التي كان يمكنني أن أراها من بعيد، و رأيت هذا الضوء  
الأصفر الذي يبدو شمسا للأعين، التي ألغت ظلام السجون .. لشد ما أحب  
الشمس!

و تمنت أقول للسجان:  
- إن الطقس جميل!

فمكث الرجل صامتا لحظة دون أن يرد علي بحرف، و كأنه كان يسائل  
نفسه عما إذا كان هذا الذي أمامه يستحق منه أن يقول له أية كلمة، ثم  
غمغم يقول فجأة في شيء من الجهد:  
- هذا محتمل.

و بقيت بغير حركة، و روحي نصف نائمة، و فمي يبتسم و عيناي لا  
تحولان عن هذا الشعاع الذهبي الرقيق الذي كان يزين السقف.  
و عدت أكرر قائلا:

- هذا يوم جميل  
فأجابني السجان قائلا في حزم:  
- نعم .. إنهم ينتظرونك

فنقلتني هذه الكلمات القليلة، التي تشبه الخيط الذي يقطع طيران الحشرة،  
في عنف إلى علم الحقيقة و الواقع.

و فجأة رأيت في مثل وميض البرق قاعة محكمة الجنایات المعتمة، و  
قفص الاتهام، و ثلاثة صفوف من الشهود تنطق وجوههم بالغباء، و  
الجنديين الواقعين عن يميني و شمالي "و الأرواب" السوداء تتحرك هنا و

هناك، و رؤوس المترجبين تبدو كالنمل عند نهاية القاعة في الظل، و أعين هؤلاء المحلفين الاثنى عشر المثبتة على، الذين سهروا بينما كنت نائما! و نهضت من فوق القش، و أسنانى تصطك، و يداي ترتجفان، و لا تعرفان أين تجدان ملابسي، و كانت ساقاي متداخلتين، لا تقويان على حملي، فتعثرت عند أول خطوة خطوطها و كأنى حمال يحمل حملا فوق طاقته، و مع ذلك فقد تبعت السجان

و كان الجنديان في انتظاري على باب الزنزانة. و ما كدت أخرج منها حتى وضعا في يدي قيدا حديبيا له قفل صغير معقد، أقفلاه في عناء، فتركتهما يفعلان، فقد كان قيدي آلة توضع فوق آلة

و اجترنا فناء السجن الداخلي، فبعث هواء الصباح المنعش في أوصالي شيئا من النشاط، و وجدت نفسي أرفع رأسي إلى أعلى. كانت السماء صافية الأديم، و كانت أشعة الشمس الدافئة التي تقطعها المداخن المرتفعة ترسم مثلثات كبارا من الضوء من فوق جدران السجن المعتمة العالية. لقد كان الجو جميلا حقا

و صعدنا سلما حلزونيا ثم مررنا خلال دهليز من بعده دهليز آخر، ثم ثالث، حتى انتهينا إلى باب منخفض فتح على الفور، فلفح وجهي هواء ساخن تخلط فيه الضوضاء. كان هذا هو جو أنفاس المحتشدين في قاعة محكمة الجنایات

و ما كدت أبدو حتى حدثت ضوضاء صادرة من قعقة الأسلحة المختلطة بأصوات الحاضرين، و تحركت المقاعد في جلبة عالية، و فتحت الحواجز محدثة صريرا كثيفا. و كان يبدو لي و أنا أعبر القاعة الطويلة بين كتلتين من الجماهير، و صفين من الجنود، أتنى كنت المركز الذي ترتبط به الخيوط التي كانت تحرك كل تلك الوجوه المتقطعة المشربة نحويا و لاحظت في تلك اللحظة أني لم أكن مكبلا بالحديد، لكنى لم أستطع أن أذكر أين أو متى كانوا قد نزعوا عنى قيدي؟

و ساد عندئذ صمت عميق. و كنت قد وصلت إلى مكاني حينما سكنت الضوضاء الصادرة من الجمهور، فسكتت أيضاً الضوضاء التي كانت تدور مع أفكري، و فهمت من فوري في وضوح ما لم أكن أتصوره إلا مشوشًا غامضًا منذ لحظات: أدركت أن اللحظة الحاسمة قد حانت و أنا

أحضرت إلى هناك لسماع النطق بالحكم على

و ليشرح ذلك من يستطيعه منكم، فإن الطريقة التي أوحت إلى بهذه الفكرة لم تبعث في نفسي الرعب! كانت النوافذ مفتوحة على مصاريعها، و ضوضاء المدينة تصل مع الهواء من الخارج دون حائل. و كانت القاعة مضيئة كما لو كان يحتفل بعرس و كانت أشعة الشمس المرحة ترسم صوراً لمصاريع النوافذ هنا و هناك، تارة طويلة جداً على أرض القاعة و مكسورة تارة أخرى عند زوايا الجدران

و كان القضاة جالسين في نهاية القاعة و قد ارتسمت على وجوههم علامات الرضا و الامتنان، و ربما كان السبب في ذلك هو سرورهم بأنهم كانوا على وشك الانتهاء. و كان انعكاس زجاج إحدى النوافذ يسقط على وجه رئيس المحكمة و يضيئه بعض الشيء فيبدو عليه شيء من الطيبة و الهدوء، بينما أخذ أحد معاونني النيابة يتبدل حديثاً يغلب عليه المرح مع سيدة جميلة ترتدي قبعة وردية اللون كان قد حابها بإجلالها خلفه مباشرة، و كان الرجل يتحدث إليها و هو يمسك بياقنة روبه و يبعث بها و كان المخلفون وحدهم هو الذين تبدو على وجوههم آثار التعب الشديد، و لكن هذا فيما يبدو كان سببه أنهم قد سهروا الليل بأكمله، و كان بعضهم يتثاءب، و لم يكن في مظاهرهم ما يدل على أنهم رجال كانوا قد فرروا لتوهم الحكم بالإعدام، و لم أقرأ في وجوه هؤلاء البورجوازيين الطيبين إلا رغبة كبرى في النوم

و كانت هناك أمامي نافذة مفتوحة على مصاريعها، كنت أسمع من خلالها بائعات الزهور و هن يضخكن على رصيف نهر "السين"، و على حافة

ركن النافذة أدهشتني رؤية نبتة صغيرة صفراء يغمرها شعاع من الشمس  
و كانت تلعب مع الهواء في ثغرة من ثغرات حجر الجدار  
فكيف يمكن أن تتثبت فكرة كثيبة بين كثير من تلك الإحساسات الجميلة؟ لقد  
كان يغمرني الهواء والشمس فكان يستحيل علي أن أفكر في شيء آخر  
غير الحرية. إن الأمل كان يشع في نفسي كما يشع من حولي ضوء  
النهار، و انتظرت النطق بالحكم علي و أنا مطمئن كما ينتظر المرء  
**الخلاص و الحياة**

و وصل المحامي الموكل بالدفاع عنى في خلال ذلك، و كانوا في انتظاره.  
و كان الرجل قد تناول غداء فاخرا في شهية كبيرة، و ما كاد يصل إلى  
مكانه حتى مال نحوه مبتسما و هو يقول:

- إبني أمل

فأجبته في خفة و أنا أبتسم أيضا:

- أليس كذلك؟

فقال المحامي:

- نعم، لست أعرف شيئا عن قرارهم بعد، و لكنهم قد استبعدوا فكرة سبق  
الإصرار دون شك، فلن تكون هناك حينئذ إلا الأشغال الشاقة المؤبدة  
فأجبته قائلا في سخط:

- ما هذا الذي تقول يا سيدي؟ .. إني أوثر الموت مائة مرة!

نعم .. الموت! و من ناحية أخرى، فإن صوتا داخليا لا أعرفه كان يكرر  
في نفسي هامسا: "ما الخطر الذي أتعرض له بقولي هذا؟ هل سبق أن  
نطق من قبل بحكم الإعدام إلا في منتصف الليل على ضوء المشاعل، و  
في قاعة معتمة سوداء في ليلة من الليالي الباردة، ليالي الشتاء المطيرة؟  
.. و لكن .. في شهر أغسطس، و في الساعة الثامنة صباحا، و في يوم  
جميل كهذا، و مع هؤلاء المخلفين الطيبين .. كلا، هذا مستحيل! و كانت  
عيناي ترتدان لنقعا على الزهرة الصفراء الجميلة و هي تتمايل في شمس  
" ..

و فجأة، دعاني إلى الوقوف رئيس المحكمة الذي لم يكن ينتظر سوى حضور المحامي، فوقف الجنود شاكبي السلاح و وقف جميع الحاضرين في نفس اللحظة كما لو كان ذلك قد حدث بتأثير قوة كهربائية! و كان ثمة وجه جامد لا تعبير فيه يجلس إلى منضدة في أسفل هيئة المحكمة، و كان هذا على ما أظن كاتب الجلسة، الذي بدأ الكلام فأخذ يتلو القرار الذي كان الملفون قد نطقوا به في غيبتي. و لم تك كلماته تطرق أذني حتى انبثق من كل أعضائي عرق بارد و استندت إلى الجدار لأمنع نفسي من السقوط و قال رئيس المحكمة يسأل المحامي:

– هل لديك ما تقوله يا أستاذ خاصا بتطبيق العقوبة؟  
و كنت أستطيع أنا أن أقول الكثير، غير أن ذهني ظل خاويًا، لم يخطر به شيء، و بقي لساني معقودا و ملتصقا بحلقى  
و نهض محامي الدفاع ففهمت أنه كان يحاول أن يخفف قرار الملفين،  
بأن يستبدل بحكم الإعدام العقوبة الأخرى التي كنت قد أحسست بأن  
كرامتى قد جرحت حينما سمعته يتحدث عنها منذ لحظة كشيء يأمله  
و لا بد أن سخطي كان شديدا بحيث ظهر خلال المشاعر الكثيرة التي  
كانت تتضارب في خاطري، و أردت أن أكرر للمحامي في صوت مرتفع  
ما كنت قد قلته له من قبل:

"أني أوثر الموت مائة مرة!"، غير أن أنفاسي تقطعت، و لم أستطع إلا أن  
أوقفه بجذبه من ذراعه في عنف و أنا أصبح فيه بقوة المحموم: "كلا!"  
و قاوم المدعى العام المحامي بكل قواه، فكنت أستمع إلى نضاله في  
سرور ينطوي على الغفلة و الغباء! و خرج القضاة بعد لحظات ثم عادوا  
ثانية إلى مقاعدهم، و قرأ رئيس المحكمة نص الحكم الذي سبق أن حكم به  
علي!

و قال جمهور الحاضرين: "محكوم عليه بالإعدام!" .. و في الوقت الذي  
كان الحراس يقودونني فيه إلى خارج قاعة الجلسة، اندفع كل هذا الجمهور  
من خلفي في دوي كأنه صوت بناء ينهار، بينما كنت أسير متعرجا في

خطواتي كالثمل و قد تملكتني الذهول! إن ثورة كانت قد انطلقت في نفسي منذ لحظة، و كنت أشعر حتى صدور الحكم بأنني أستنشق الهواء، و بأن قلبي ينبض، و باني أعيش في نفس الوسط الذي يعيش فيه غيري من الناس. و لكنني الآن كنت أميز في وضوح حاجزا يفصل بيني وبين العالم، و لم يكن يظهر لي شيء على نفس الصورة التي كان يبدو لي فيها من قبل: وهذه النوافذ العريضة المضيئة، و هذه الشمس الجميلة الحانية، و هذه السماء الزرقاء النقيّة، و هذه الزهرة الجميلة، كل ذلك بدا في عيني أبيض شاحبا بلون الكفن .. و هؤلاء الرجال و النساء و الأطفال الذين كانوا يتراحمون من حولي و يندفعون في طريقى كانوا يتراءون لي كالأشباح!

## في العربية السوداء

و كانت هناك عربة قذرة سوداء مقلة بقبضان من حديد تنتظرني عند أسفل السلم .. و أصعد إليها نظرة عابرة على الميدان، فرأيت المارة يعدون نحوها و هم يصيرون قاتلين: "محكوم بالإعدام!" و استطعت أن أميز من خلال السحابة التي كان يبدو لي أنها تفصل بيوني و بين الأشياء، فتاتين شابتين كانتا تتبعاني بأعين نهمات، فقالت صغراهما و هي تصفع بيديها: "حسنا! سيكون تنفيذ الحكم فيه بعد ستة أيام!"

### الفصل 3

أنا محكوم علي بالإعدام!

حسنا! و لم لا؟ إني أذكر أنتي قرأت ذلك في كتاب من الكتب لم يكن به شيء حسن سوى هذه العبارة: "إن البشر جمیعاً محکوم علیهم بالإعدام، و إنما یختلف وقت تنفيذ الحكم!". فماذا الذي قد تغير كثيراً إذن في موقعي؟ كم من أنس قد ماتوا بينما كانوا يعدون أنفسهم لحياة طويلة منذ اللحظة التي نطق فيها بالحكم علي؟ و كم من شباب حر في أوج الصحة قد سبقني و كان يعتزم الذهاب في اليوم المحتموم ليرى رأسي و هو يهوي في ساحة الإعدام! و كم من هؤلاء الناس الذين يمشون و يستنشقون نسميم الحرية و هم يخرجون و يدخلون على هواهم، كم من هؤلاء سوف يسبقني كذلك إلى عالم الموت!

ثم .. على أي شيء أندم في الحياة؟ أهو اليوم المظلم؟ أم هو الخبز الأسود في الزنزانة، مع الطعام الهزيل الذي يلقى إلي في الدلو، دلو المحكوم عليهم بالإعدام؟ أم الغلطة و المعاملة الفظة اللتان يعاملني بهما السجانون و الحراس، و أنا الذي رببت تربية مرهفة ناعمة؟ أم هو حرمانني من رؤية أي مخلوق آدمي يعتقد أنني أستحق أن يبادلني الحديث؟ أم أن أرتجف بغير انقطاع مما فعلته و مما سيفعلونه بي؟ أليس هذا تقريباً هو كل الخير الذي يستطيع الجlad أن ينتزعه مني؟

آه! ولكن هذا لا يهم .. إنه شيء فظيع!

#### الفصل 4

نقلتني العربية السوداء الرهيبة إلى هنا، في سجن "بستر" البشع، و هو مبني يبدو على مظهره بعض العظمة عند رؤيته من بعيد، فهو يظهر في الأفق على جبهة تل، و يحتفظ بشيء من روعته الملكية السابقة إذا نظرت إليه من بعيد، و لكنه يصير كوخا حقيرا عندما تقترب منه! فأبراجه التي سقطت تحت مستواها الأصلي تجرح بمنظرها العين، و لست أدرى أي شيء حquier مخجل لطخ واجهاته الملكية بالقذارة، إذ تبدو كأن جدرانها مصابة بالجذام، و نوافذه لم يبق بها زجاج و لا مصاريع، و لكنه كتل ضخمة من قضبان حديدية مقاطعة يلتتصق بها هنا و هناك وجه شاحب يبدو عليه الشرود، وجه لشخص محكوم عليه أو وجه لشخص مجنون! إنها الحياة من قرب!

## الفصل 5 العودة إلى بيستر

ما كدت أصل إلى سجن "بيستر" حتى تلقتني أيد حديدية، و ضواغط الاحتياطات في الحال. فلا سكين مع الطعام و لا "شوكة" بل قميص المحكوم عليه فحسب، و هو عبارة عن كيس من التيل الخشن ليس له كمان سجنت بداخله ذراعي!

إنهم كانوا مسؤولين عن بقائي حيا، و كنت قد استأنفت الحكم، و هذا الاستئناف قد يستغرق من ستة أسابيع إلى سبعة أسابيع غالباً الثمن، و كان من المهم أن يحتفظوا بي سليماً معافى لساحة الإعدام!

و عمّلت في الأيام الأولى بلطف كان يبدو لي رهيباً مفزعاً، فظرف السجان و رقه رائحة من روانح المشفقة، ثم ما لبثوا أن تغلبت عليهم العادة لحسن الحظ فعاملوني في غلطة كما يعاملون غيري من المساجين، و لم يعودوا يميزونني على غير المألوف منهم بأدبهم الذي كان يجعلني أتصور الجlad واقفاً أمامي على الدوام. و لم يكن ذلك هو التحسن الوحيد الذي طرأ على موقفي، بل إن شبابي، و دعّتي و عناء قسيس السجن بأمرِي، و بوجه خاص بعض الكلمات اللاتينية التي كنت أوجهها إلى البواب فلا يفهم من أمرها شيئاً، كل ذلك قد فتح لي باب النزهة مرة في كل أسبوع مع المسجونين الآخرين، و ذهب بالقميص الخشن الغليظ الذي كان يشد حركتي. كما أعطيت كذلك مداداً و ورقاً و قلماً و مصباحاً بعد تردد ليس بالقصير

و كانوا يطلقونني في كل يوم أحد بعد القدس في فناء السجن ساعة الفسحة حيث أتبادل الحديث مع المسجونين، و كان هذا بالنسبة إلي شيئاً ضرورياً للغاية. حقاً إن هؤلاء البناسين أناس طيبون، و هم يقصون علي وقائهم و حيلهم، و هي أمور ترسل في الجسم رعدة قاسية و لكنني كنت أعلم أنهم يفاخرون

و كان هؤلاء المسجونون يعلمونني أن أتحدث بلغة السجون كما يقولون، و هي لغة مكتملة النمو مشتقة من اللغة الجارية كنوع من الورم الخبيث، أو كالسنسنط في الجسد، لبعض ألفاظها وقع عنيف و جمال مخيف، و ذلك مثل قولهم: "إنه يمشي على العنب الأحمر"، و يعنون به أن الدم في طريقه. و قولهم: "يتزوج الأرملة"، و يعنون به أنه يشنق كما لو كان حبل المشنقة أرملة فقدت كل أزواجها السابقين المشنوقين! إن رأس اللص له في السجن اسمان: "السربون" عندما يفكر و يعقل و ينصح بالجريمة، و "المقطوع" عندما يقطعه الجلاد! و في بعض الأحيان، تكون الفاظ السجن هذه شبيهة بروح المسرحية الخفيفة المرحة (الفودفيل)، كقولهم: "شال من خيزران" (عربة "الزبال") .. و "الكافنة" (اللسان)! و فوق هذا، ففي كل لحظة و في كل مكان تسمع كلمات غريبة و عجيبة تتسم بالقبح و الفذارة، و لا أدرى من أين تخرج، مثل: الدرع (الجلاد)، و "الخازوق" (الموت)، و "الصندرة" (ساحة الإعدام)! .. ألفاظ تبدو لي كالعناكب و الأبراص، حينما يسمعها المرء تترك في نفسه الأثر الذي يحدثه الشيء القدر المغبر، و كأنها كتلة من الخرق البالية التي تنفس أمام عينيه و مهما يكن من شيء، فإن هؤلاء الرجال يرثون لحالى، و هم وحدهم الذين يفعلون ذلك، إذ أن السجانين و الحراس - و لست أحقد عليهم - يتحدثون و يضحكون، و يتكلمون عنى في وجودي و كأنني شيء يمت إلى عالم الجماد!

الفصل الثاني

# أيام لن تعود

## الفصل 6 مذكرياتي

و قلت في نفسي:

لماذا لا أكتب ما دامت لدى أدوات الكتابة؟ و لكن، لماذا أكتب؟ أنتي سجين بين أربعة جدران ضخمة من الحجر العاري البارد الحزين، حيث لا حرية لخطواتي و لا أفق يمتد أمام عيني، و لا تسلية لي طول الوقت إلا أن أتبع بطريقة آلية ما يجري خارج زنزانتي من خلال كوة الباب المربعة الصغيرة البيضاء، و ما كانت تعكسه أمامي مباشرة على الحاطن المظلم، و كما كنت أقول منذ برهة، فابني كنت وحدي وجهاً لوجه مع فكرة الجريمة و العقاب، فكرة القتل و الموت! فهل سيكون لدى ما أقوله و أنا الذي صرت إنساناً لا داعي لوجوده في هذا العالم؟ و ماذا عساي أن أجد في هذا الإنسان الذابل الخاوي؟

ولكن .. لم لا؟

إذا كان كل شيء من حولي يسير على وتيرة واحدة، و لا لون له على الإطلاق، أفلأ تضطرم في أعماق نفسي عاصفة عاتية، و كفاح مستعر، و مأساة دامية؟ إن هذه الفكرة الثابتة التي تستحوذ على نفسي تتبدى أمامي في كل ساعة و في كل لحظة في شكل جديد، و هي تزداد كآبة و تلوثاً بالدماء ساعة بعد ساعة كلما اقترب المصير المحتم! فلماذا لا أحاول أن أقول لنفسي كل ما أحس به، و أقص عليها ما أكابده من مشاعر عنيفة، بعضها يحاصرني فعلاً و بعضها مجھول لا يزال ينتظري في موقعي هذا المينوس منه الذي أجد نفسي فيه الآن.

إن الموضوع غني ما في ذلك شك، و مهما بدا لي ما تبقى من عمري قصيراً فسوف يكون في الهواجس و الرعب و العذاب الأليم، الذي يملؤه منذ هذه الساعة إلى أن تحين ساعتي الأخيرة، ما يكفي لاستهلاك هذا القلم و نفاذ هذا المداد كله. و من جهة أخرى، فإن الوسيلة الوحيدة التي أستطيع بها أن أخفف بعض الشيء من آلام هذه الهواجس هي أن ألاحظها ثم أصفها، فهذا خليق بأن يسري عني بعض التسرية

و فوق هذا، فإن ما سأكتبه هكذا قد لا يكون عديم النفع. فهذه المذكرات التي تسجل آلامي ساعة فساعة، و دقيقة دقيقة، و عذابا إثر عذاب - لو أني وجدت في نفسي القدرة على تدوينها حتى اللحظة التي سوف يستحيل على جثمانيا أن أتابع كتابتها - إذ أن قصة مشاعري هذه ستبقى حتماً ناقصة بلا نهاية و إن كانت كاملة من حيث طاقتى - هذه المذكرات ألم تحمل في طياتها عظة كبيرة و عميقه؟ ألم يكون في هذا السجل المدون عن الفكر و هو يحضر، و عن الآلام التي تتزايد باستمرار .. هذا النوع من التشريح العقلي لإنسان محكوم عليه بالموت .. ألم يكون فيه أكثر من درس لأولئك الذين يصدرون هذا الحكم؟

نعم .. فقد يجعلهم قراءة هذه المذكرات أقل تسرعا، و تحملهم على شيء من التروي في المستقبل عندما يكون الأمر متعلقاً بإسقاط رأس يفكر، رأس إنسان، فيما يسمونه ميزان العدالة! قد لا يكون هؤلاء التعباء فكروا قط في هذا التتابع البطيء لأنواع العذاب التي تنطوي عليها هذه الصيغة الموجزة التي ينطق بها في استخفاف: "الحكم بالإعدام!" ترى هل وقفوا قط مرة واحدة، واحدة فحسب، عند هذه الفكرة الأليمة ليروا أن في هذا الإنسان الذي يقطعون رقبته ذكاء كان قد اعتمد على الحياة، و أن فيه روح لم تكن قد تهيأت بعد للموت؟

كلا! إنهم لا يرون في هذا كله إلا سكيناً مثلثة الشكل تهوي رأسياً على رقبة الشخص المحكوم عليه بالموت، و هم يحسبون دون شك أنه لا شيء هناك بالنسبة إليه، لا من قبل ذلك و لا من بعده!

إن هذه المذكرات سوف تظهر لهم أنهم مخطئون، فقد يتاح لها أن تنشر في يوم من الأيام، فتفتح أعينهم لحظات على آلام النفس التي لا يشك فيها أحد منهم. إنهم يفخرون بقدرتهم على القتل دون أن يتالم الجسم تقريرياً بسبب سرعة المقصلة في إنجاز مهمتها الدامية، غير أن هذا ليس كل ما في الأمر، إذ ما قيمة الألم البدنى إذا قيس بآلام النفس؟

إننا لنشمئز من هذه القوانين الموضوعة على هذه الصورة التي تتحرك  
أنفسنا شفقة بها، و سوف يأتي يوم تكون فيه هذه المذكرات، و هي  
الأسرار الأخيرة لإنسان بائس، قد أسلمت في هذا المضمار .. اللهم إلا إذا  
عيثت الريح بعد موتي بهذه الأوراق الملطخة بالوحش في فناء السجن، أو  
لصقها سجان على شكل نجوم في نافذة مكسورة الزجاج في حجرته  
فتتعفن هناك تحت قطرات المطر

### الفصل 7

و سواء أكان ما أكتبه هنا يمكن أن يكون يوماً ماناً فاعلاً لغيري، أم أنه أوقف  
القاضي و هو يهم بالنطق بالحكم، أم أنقذ البائسين من أبرياء و مذنبين،  
أنقذهم من الاحتضار الذي حكم به علي .. فلماذا كل ذلك؟ .. و ما فائدته؟  
.. و ما أهميته؟ .. ماذا يهمني أن تقطع رؤوس أخرى بعد أن يكون رأسي  
قد قطع؟ .. هل استطعت حقاً أن أفكر في هذه الفكرة الجنونية، في أن  
أفذ بالمقصلة على الأرض و أهدمها بعد أن أكون قد صعدت عليها؟ هل  
لي أن أسألكم قليلاً: ماذا سيعود على من تحطيم المقصلة بعد أن أذهب  
ضحية لها؟

آه! إن الشمس، و الربيع، و الحقول المملوكة بالأزهار، و الطيور التي  
تستيقظ في الصباح، و الغيوم، و الأشجار، و الطبيعة، و الحرية، و الحياة  
.. كل ذلك لم يعد لي منه شيء!

رباه! .. إنه أنا الذي يجب إنقاذه! هل صحيح أن هذا غير ممكن؟ و أنه  
يجب أن أموت غداً، بل و ربما اليوم؟ .. هل صحيح أن الأمر هكذا؟ .. يا  
إلهي! إن هذه الفكرة الرهيبة لتدفعني إلى التفكير في تحطيم رأسي على  
جدار زنزانتي

### الفصل 8

و الآن، فلنعد ما تبقى لي:  
مهلة مدتها ثلاثة أيام عقب النطق بالحكم لتقديم طلب الاستئناف إلى  
محكمة النقض. و ثمانية أيام من النسيان في نيابة الاستئناف ترسل بعدها

المستندات - كما يقولون - إلى مكتب الوزير. و خمسة عشر يوما من الانتظار لدى الوزير الذي لا يحس بوجود هذه الأوراق و لا يعلم من أمرها شيئا، و مع ذلك فالمفروض أنه يحيلها بعد فحصها إلى محكمة النقض، حيث يتم ترتيبها و ترقيمها و تسجيلها، لأن المقصولة لديها عمل كثير، و يجب ألا يمر بها كل إنسان إلا في دوره ... ثم خمسة عشر يوما للتأكد من أنه لم يحدث لك امتياز ما خارج حدود القوانين و اللوائح و أخيرا، تتعقد المحكمة عادة في يوم الخميس، فترفض عشرين طلبا استئناف دفعه واحدة، ثم تعيدها إلى الوزير الذي يرسلها إلى النائب العام، فيحيلها هذا إلى الجلاد. و يستغرق هذا كله ثلاثة أيام و في صباح اليوم الرابع، يقول وكيل النائب العام لنفسه و هو يلبس ربطة عنقه: "و مع ذلك فيجب أن تنتهي هذه المسألة!". و عندئذ، فإن كان نائب كاتب المحكمة ليس مرتبطا بموعد للغداء مع بعض الأصدقاء يمنعه من ذلك، فإن الأمر بالإعدام تحدد له دائما دقيقة للتنفيذ، ثم يحرر و يبيض و يرسل إلى الجهة المختصة .. فيسمع منذ فجر اليوم التالي صوت إقامة أخشاب المقصولة في ساحة الإعدام، و يصبح المنادون العموميون عند تقاطع الشوارع و في الأزقة في صوت مرتفع مبحوح

كل ذلك يتم في ستة أسابيع. إن الفتاة الصغيرة كانت على حق! و لكنها هي ذي خمسة أسابيع على الأقل، و ربما ستة فلست أجرؤ على أن أعدها، قد انقضت على في هذا السجن، سجن "بيستر" الحقير، و يبدو لي أنه منذ ثلاثة أيام مضت كان اليوم يوم الخميس

## الفصل 9

لقد فرغت الآن من كتابة وصيتي!

و لكن .. ما فائدة ذلك؟ لقد حكم على بدفع تعويض لن يكون كل ما أملكه كافيا لسداده. حقا إن المقصولة باهضة الثمن! إنني أترك وراني أما، و زوجة، و طفلة! .. طفلة صغيرة في الثالثة من عمرها حلوة وردية اللون

ضعيفة البناء، عينها واسعة سوداء و شعرها طويل كستائي اللون،  
و كانت سن ابنتي سنتين و شهرا واحدا عندما رأيتها لأخر مرة  
و هكذا، فسوف يكون هناك بعد موئي ثلاثة نساء: واحدة منها بغير ابن،  
و الثانية بغير زوج، و الثالثة بلا أب .. ثلاثة ينتميات من أنواع مختلفة ..  
ثلاث أرامل باسم القانون!

إنني أواقف على أن أعقاب عقابا عادلا و لكن .. هؤلاء البريئات ماذا جنن؟  
و ما ذنبهن؟ إن هذا لا يهم، فهم يلوثون شرف هؤلاء النساء الثلاث و  
يدمرون حياتهن .. إنها العدالة!

و ليس ما في الأمر أن أمي العجوز المسكينة تقلقني، فسنها أربع و ستون  
سنة و سوف تموت من أثر الصدمة، و لو أنها عاشت من بعدي لبضعة  
أيام فيها ليتها تجد في مدفاتها لأخر لحظة بعض الرماد الدافئ، فهي لن  
تشكو و لن تقول شيئا

و أمر زوجتي كذلك لا يبعث في نفسي القلق، فهي معتلة الصحة ضعيفة  
النفس، و سوف تموت هي الأخرى .. إلا إذا أصابها مس من الجنون. إنهم  
يقولون أن الجنون يطيل العمر، و لكن عقلها لن يتآلم عندئذ على الأقل، و  
من ثم فإنها ستتام و تكون كأنها في عداد الأموات  
أما ابنتي و فلذة كبدى، طفلي و صغيرتي "ماري" المسكينة التي تضحك  
و تلعب و تغنى في هذه الساعة و لا تفكر في شيء، فإنها هي التي تثير  
في نفسي الألم!

## في الزنزانة

### الفصل 10

هذه هي زنزانتي:

إن مساحتها ثمانى أقدام مربعة، ولها أربعة جدران سميكة من الحجر، ترتكز بزاوية قائمة على أرضية من البلاط تعلو بمقدار درجة واحدة على مستوى الدهليز الخارجى. و هناك على يمين الداخل، عند الباب، نوع من التجويف يقاد في سخرية صوان ملابس النساء الذي يوجد عادة داخل الجدران. إنهم يلقون فيه بحزمة من القش من المفروض أن يستريح السجين عليها وأن ينام وهو يرتدي سروالا من التيل، و سترة من القماش الرخيص لا يتغيران صيفاً أو شتاء

و فوق رأسي كسماء، يرى المرء "قبة" سوداء - هكذا يسمونها - تتسلى منها خيوط العنكبوت كأنها خرق بالية. و فيما عدا هذا، فلا نوافذ هناك، حتى ولا كوة صغيرة، فلن تجد اللهم إلا باباً عتيداً يطغى فيه الحديد على الخشب

كلا، كلا .. إنني مخطئ، ففي وسط هذا الباب إلى أعلى، هناك فتحة مساحتها تسع بوصات مربعة، تخللها طولاً و عرضاً شبكة من حديد على شكل صليب، يستطيع السجان أن يغلقها أثناء الليل

و في خارج الزنزانة، دهليز طويل نسبياً يضاء و يغير هواؤه عن طريق نوافذ عالية ضيقة في أعلى الجدار، و مقسم إلى أقسام بفواصل مبنية، و يتصل بعضها ببعض بسلسلة من الأبواب المتينة غير المرتفعة. و يستعمل كل قسم من أقسام هذا الدهليز، على نحو ما، كمدخل لزنزانة شبيهة بزنزانتي، و في هذه الزنزانات يضعون المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة الذين يحكم عليهم مدير السجن بعقوبات تأديبية. أما الزنزانات الثلاث الأولى فمخصصة للمحكوم عليهم بالإعدام لأنها قريبة من مركز المراقبة، و من تم فيهي أكثر ملائمة للسجان

هذه الزنزانات هي كل ما تبقى من قصر "بيستر" القديم كما بناه في القرن الخامس عشر الكاردينال "وينشتير" و هو نفس الكاردينال الذي قضى بإحراق "جان دارك" .. إنني سمعت هذا من فضوليين كانوا قد حضروا منذ أيام ليروني في زنزانتي، و كانوا ينظرون إلى من بعيد كما ينظر الناس إلى الوحش الضاربة في حدائق الحيوان. و قد حصل السجن يومئذ على خمسة فرنكات

لقد نسيت أن أقول أن هناك جنديا مكلفا بالحراسة على باب زنزانتي ليلا و نهارا، و أن عيني لا تستطيع أن ترتفعا إلى الفتحة المربعة بباب الزنزانة دون أن تلتقيا بعينيه المفتوحتين الشاحفتين إلى على الدوام و فيما عدا هذا، فهم يفترضون أن الهواء و ضوء النهار ينفذان إلى هذا الصندوق المصنوع من الحجر

## الفصل 11

و بما أن ضوء النهار لم يظهر بعد، فماذا أفعل بالليل؟  
لقد خطرت بيالي فكرة، فنهضت واقفا و أدت مصباحي من الجدران الأربع، فوجتها مغطاة بالكتاب و الرسوم و الأشكال الغريبة، و بأسماء يختلط بعضها ببعض و يمحو بعضها ببعض. و يبدو أن كل محكوم عليه قد أراد أن يترك وراءه أثرا، هنا على الأقل. إنها كتابات بالقلم، و بالطباسير، و بالفحم، و بها حروف سوداء و بيضاء و رمادية اللون محفورة في الأغلب حفرا عميقا في الحجر. و رأيت هنا و هناك أحروا بدأت معالمها تنتهي، و يبدو أنها قد كتبت بالدم

و لو أن نفسي كانت أكثر حرية مما هي فيه لاهتممت حقا بأمر هذا الكتاب الغريب المسطر أمام عيني صفحة صفحة على كل حجر من أحجار هذه الزنزانة، و لكنني جعلت من هذه الشرائح من الأفكار المبعثرة على الأحجار كتابا كاملا أعيد تأليفه، و أن أجده مرة ثانية كل رجل وراء كل اسم، و أن أعيد المعنى و الحياة إلى هذه الكلمات المحفورة المحطمة، إلى

هذه العبارات المبعثرة المفككة، إلى هذه الألفاظ المبتورة التي بدت لي  
كأجساد بلا رؤوس كالأشخاص الذين كتبواها  
و رأيت عند مستوى ارتفاع فراشي المصنوع من القش قلبي ملتهب  
يخترقهما سهم و مكتوب فوقهما: "الحب مدى الحياة!" يا للمسكين! ماتت  
أمانيه في ريعان الشباب!

و إلى جوار هذا قبعة مثلثة الزوايا، من تحتها وجه مرسوم بطريقة رديئة  
و معه هذه الكلمات: "يحيا الإمبراطور .. عام 1824"  
و رأيت قلوبا أخرى ملتهبة و معها هذه العبارة الخاصة بحياة السجون:  
"إنني أحب وأعبد" ماتيو دنfan - جاك"

و على الجدار المقابل لسريري، وقعت عيناي على هذا الاسم: "بابا  
فوان"، و كان حرف الباء الأول كبيرا و مزركشا بنقوش عربية و  
مرسوما بعناية، و من تحت هذا مقاطع من أغنية يذينة. ثم على "قبعة  
الحرية" المحفورة في الحجر بشكل عميق بعض الشيء، و قد كتب من  
فوقها هذا الكلام: "إلى الجمهورية - بوريس" .. إنه كان أحد ضباط  
الصف الأربع بمدينة "لاروشيل"! يا له من شاب مسكين! و يا لكابة  
ضروراتهم السياسية المزعومة! فبسبب فكرة أو حلم أو مجرد خيال، نرى  
هذه الحقيقة البشعه: المقصلة! .. و أنا الذي كنت أشكو .. أنا التعس الذي  
كنت أشكو .. أنا التعس الذي ارتكبت جريمة بمعنى الكلمة و أرقت الدماء!  
إنني لن أذهب في بحثي إلى أبعد من هذا، فقد رأيت من فوري صورة  
رهيبة مروعة مرسومة باللون الأبيض في ركن الجدار: إنها صورة هذه  
المقصلة التي ربما كانت تقام لي في هذه اللحظة! و كاد المصباح يسقط  
من يدي!

## الفصل 12

و اندفعت عائدا لأجلس على القش و رأسي بين ركبتي، ثم انقض فزعي  
الصبياني و أخذتني من جديد الرغبة في الاستطلاع، و متابعة قراءة ما  
هو مكتوب على جدر الزنزانة. انتزعت من جانب اسم "بابا فوان" نسيج

عنكبوت ضخم متقدلا تماما بالغبار ، و معلقا في زاوية الجدار ، فرأيت تحته  
أربعة أسماء أو خمسة من الممكن أن تقرأ بسهولة من بين أسماء أخرى لم  
يبق منها سوى بقع على الجدار. أما الأسماء الواضحة فهي: "دونان" عام  
1815 - "بولان" عام 1818 - "جان مارتان" 1821 - "كاستانج"  
عام 1823

و ما كدت أقرأ هذه الأسماء حتى انتابتي ذكريات مظلمة: أما "دونان" هو  
الذي قطع أخيه إربا إربا، و ذهب ليلا إلى باريس ليلاقي برأسه في نافورة  
و بجذعه في المجاري! و "بولان" هو الذي قتل زوجته، و "جان مارتان"  
هو الذي أطلق رصاص مسدسه على والده الشيخ و هو يفتح نافذة. أما  
"كاستانج" فهو ذلك الطبيب الذي قضى على صديقه و هو يعالجه في  
مرضه الأخير، الذي كان الطبيب نفسه سببا فيه، و ذلك لأن كان يعطيه  
السم على أنه دواء. و إلى جانب هؤلاء "بابا فوان" المجنون الرهيب الذي  
كان يقتل الأطفال بطعنة من سكين في الرأس!!

قلت في نفسي: هاهم أولاء من أقاموا من قبلني ضيوفا في هذه الزنزانة! و  
أحسست برجرفة من الحمى تسري في كلتي! هنا، على نفس هذه  
"البلطة" التي أجلس عليها. جالت في أذهان رجال الجريمة و الدم  
هؤلاء، أفكارهم الأخيرة .. لقد دارت خطواتهم الأخيرة حول هذا الجدار،  
و في هذا المربع الضيق، خطوات حيوان كاسر. لقد تتبع بعضهم في أثر  
بعض على فترات متقاربة في هذه الزنزانة حتى ليبدو لي أنها لم تخل أبدا  
من النزلاء! لقد تركوا هذا المكان دافنا .. تركوه لي أنا، و سوف أذهب  
بدوري لألحق بهم في مقبرة "كلامار" حيث ينمو العشب بغزاره أيمما  
غزاره!

لست أتنبأ بالغيب، و لا أعتقد في الخرافات، و من المحتمل أن هذه الأفكار  
كانت تثير في نفسي مزيدا من الحمى، و لكن بدا لي فجأة و أنا أحلم على  
هذه الصورة، أن تلك الأسماء المشنومة كانت مكتوبة بالنار على الجدار  
الأسود، و دوى في أذني رنين قوي أخذ يزداد عنفا و سرعة، و امتلأت

عيناي بوهج أحمر ! ثم بدا لي أن الزنزانة كانت مملوءة بالرجال، ب الرجال  
أشكالهم غريبة، كانوا يحملون رؤوسهم بأيديهم اليسرى و هم يمسكون بها  
من الفم، لأنها كانت رؤوسا لا شعر فيها .. و كانوا جميعا يلوحون إلى  
بقبضات أيديهم مهددين ما عدا قاتل أبيه!

و أطبقت عيني و قد تملكتني الهلع، فرأيت عندئذ كل شيء في وضوح  
أكثر، و سواء أكان ما رأيته حلما أم رؤيا أم حقيقة، فقد كنت خليقاً بأن  
أجن .. لو لا أني أحسست بشعور مفاجئ أيقظني من هذا الكابوس في  
الوقت المناسب، و كنت أقع على ظهري عندما شعرت ببطن بارد، و  
بأجل صغيرة مكسوة بالزغب تزحف فوق قدمي العاريتين. كان هذا هو  
العنكبوت الذي كان في طريقه إلى الهرب بعد أن أزعجه  
و لقد أزال هذا العنكبوت الرؤيا من أمام ناظري. و يا لها من أشباح  
مرعبة! كلا، إنها كانت دخانا ينبعث من مخي الخاوي المحموم! كانت  
كابوسا على طريقة "ماكبث!" فالموتى ميتون، و خاصة هؤلاء. لقد  
أغلقت عليهم القبور جيدا بالأقفال، و ليس القبر سجنا يهرب منه الإنسان.  
فكيف حدث إذن أني خفت على هذا النحو؟

إن باب القبر لا يفتح من الداخل فقط

## مشهد رهيب

### الفصل 13

رأيت في هذه الأيام الماضية شيئاً بشعاً! كنا في مطلع الفجر، و كان السجن يضج بالأصوات، و كان يسمع صوت إغلاق الأبواب الثقيلة و فتحها، و صرير المزاليج و الأقفال الحديدية، و صلليل رزم المفاتيح التي يحتك بعضها ببعض في أحزمة السجانين، و اهتزاز درجات السلالم من أعلى إلى أسفل تحت وقع خطوات متقدمة، و أصوات ينادي بعضها ببعض، و يرد بعضها على بعض من طرفي الدهاليز الطويلة! و كان جيرانى في الزنزانة، و هم المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة، أكثر مرحاً من المأمور. و كان يبدو على سجن "بيستر" بأسره أنه يضحك و يغني، و أنه يلهو و يرقص

و بقيت وحدي صامتاً وسط كل هذه الضوضاء، ساكناً لا أبدي حراماً وسط هذه الحركة الدائبة. كنت أصغي فحسب، أصغي في يقظة و انتباه و قد تملكتني الدهشة

و من أحد السجانين فخاطرت بندائه، و سأله عما إذا كان هناك عيد في السجن، فأجابني الرجل قائلاً: "إنه عيد إذا شئت! فالليوم موعد تقدير المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة بالحديد، أولئك الذين يجب أن يرحلوا غداً إلى سجن "طولون" أتريد أن تشاهد ذلك؟ إنه سوف يسليك"

و كان هذا المنظر في الواقع - مهما بلغ من بشاعته - فرصة طيبة لإنسان سجين بمفرده في زنزانة، فقبلت هذه التسلية

و اتخذ السجان الاحتياطات المعتادة كي يطمئن من ناحيتي، ثم اصطحبني إلى زنزانة صغيرة خالية ليس بها أثاث على الإطلاق، و لها نافذة مسورة بقضبان من حديد، و لكنها نافذة بمعنى الكلمة، على قدر من الارتفاع يسمح للمرء بأن يتکي على حافتها، و أن يرى السماء من خلالها بالفعل

و قال لي السجان: "حسنا .. من هنا سوف ترى و تسمع، و سوف تكون  
وحرك في مقصورتك هذه و كأنك ملك!"

ثم خرج الرجل بعد أن أغلق على باب الزنزانة بالمفاتيح و الأقفال و  
المزاليج

و كانت تلك النافذة تطل على فناء مربع الشكل، فسيح إلى حد معقول،  
يحيط به من الجهات الأربع بناء كبير من الحجر مؤلف من ستة طوابق  
كانه جدار ضخم. و ليس ثمة ما هو أكثر زرامة و عرياناً و أشد إيذاء للعين  
من هذه الواجهة الرباعية ذات النوافذ العديدة المسورة بالحديد، التي  
التصقت بها - من أسفل البناء إلى أعلىها - مجموعة كبيرة من الوجوه  
الشاحبة الضامرة، قد تكدس بعضها فوق بعض كأنها أحجار في جدار،  
يحيط بها جميعاً - إن صح هذا التعبير - إطار من قضبان النوافذ  
الحديدية. كان هؤلاء هم السجناء، قد أخذوا يشاهدون هذا الحفل، في  
انتظار أدوارهم حين تحين ليصبحوا هم الممثلين. إن المرء ليخيل إليه أنهم  
أرواح معذبة من وراء نوافذ من حديد تطل على جهنم

كانوا ينظرون جميعاً في صمت إلى الفناء الذي كان لا يزال خالياً إلى تلك  
لحظة. إنهم كانوا ينتظرون. و هنا و هناك، كانت بعض الأعين الحية  
الثاقبة تلمع كأنها نقط من النار بين تلك الوجوه الحزينة المنطفئة

إن "مربع السجون" الذي يحيط بذلك الفناء ليس مقلاً من جميع نواحيه،  
فأحد أضلاعه الأربعة (الضلوع الذي يطل على جهة الشرق) مقطوع عند  
وسطه تقريباً و لا يتصل بالضلوع الذي يجاوره إلا سور من حديد، يطل  
على فناء ثان أصغر مساحة من الفناء الأول، و محاط مثله بالجدران و  
الأبراج الصغيرة السوداء

و من حول الفناء الرئيسي، توجد مقاعد من الحجر ظهرورها إلى الجدار  
الضخم، و يقوم في وسطه عمود من الحديد مثنى من أعلى ليغلق به  
المصباح

و ما كادت الساعة تدق معلنة الثانية عشرة ظهرا، حتى فتح على حين فجأة باب كبير مرتفع يكمن وراء تجويف في البناء، و ظهرت عربة "كارو" يحرسها نفر من الجنود بدأ عليهم القذارة و الوجل، يرتدون زياً أزرق، و على أكتافهم شارات حمراء، و سبور صفراء، من التي تعلق فيها البنادق. و دخلت هذه العربة الفناء في تناقل محدثة صوتاً حديديا.

كانت تلك هي عربة السجانين قد جاءوا و معهم أغلال من حديد و في تلك اللحظة عينها، و كما لو كان الصوت الصادر من العربة قد أيقظ كل أصوات السجن، ضج المتردجون من النوافذ بصيحات المرح و الأغاني، و بالتهديد و السب و الشتائم المختلطة بقهقهة عالية، و ضحكات سماعها يؤلم الآذان، و هم الذين كانوا إلى تلك اللحظة صامتين لا يتحركون، كانت وجوههم تبدو كأنها وجوه الشياطين، و قد بدأ مكفحة مكشرة عن أننيابها، و برزت قبضات أيديهم من خلال قضبان النوافذ، و ارتفعت كل الأصوات، و لمعت كل الأعين، فروعتني رؤية كل ذلك الشر و هو يتطاير من خلال هذا الرماد

و مع ذلك، فقد شرع عمال السجن، الذين كنت أميز من بينهم عدداً من الفضوليين، كانوا قد قدموا من باريس، نظراً لما كان باديأ عليهم من الرعب و نظافة الهناء، و شرع عمال السجن هؤلاء في تأدية عملهم في هدوء، فصعد أحدهم فوق العربة و ألقى إلى رفاقه بالأغلال الحديدية، و أطواق السفر، و رزم السراويل المصنوعة من التيل الرخيص. ثم قسم العمال العمل فيما بينهم، فذهب فريق منهم إلى ركن من أركان الفناء ليسيطوا فيه السلسل الطويلة التي كانوا يسمونها في لغتهم "الدوبارة"، أما الآخرون فقد بسطوا الأقمشة و القمصان و السراويل على "البلاط"، بينما كان أكثرهم فراسة يفحصون الأطواق الحديدية المخصصة لأقدام السجناء، تحت مراقبة قائدتهم و هوشيخ بدين، ثم يمتحنون صلابتها بحکها في البلاط حتى يتطاير منها الشر

و كان هذا كله يجري بينما كان السجناء يصفقون في سخرية و استهزاء، و لم يكن يطغى على أصواتهم إلا ضحكات صاحبة صادرة من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، الذين كان ذلك يعد من أجلهم، و هم يقفون على مرأى منا عند تقاطع السجن العتيق الذي يطل على الفناء الصغير و ما إن تمت هذه الاستعدادات حتى جاء رجل في ثياب موشاة بالفضة كانوا يدعونه "السيد المفتش"، و أعطى أمرا إلى مأمور السجن. و ما هي إلا لحظة حتى لفظ بابان منخفضان أو ثلاثة عددا ضخما من الرجال دفعه واحدة، و امتلا الفناء بكتل كالسحاب من السجناء البشعين المهللين و هم يصيحون و يزأرون. كان هؤلاء هم المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة!

و تضاعف الفرح في النواخذة لدى دخول هؤلاء، و حيا السجناء بعضهم - و هم الأسماء الكبيرة في اليمان - بالتصفيق و التهليل، فكان هؤلاء يتقبلون ذلك منهم في نوع من التواضع الممزوج بالفخر، و كان أكثرهم يلبسون فوق رءوسهم قبعات غريبة الشكل كانوا قد صنعواها بأيديهم من قش الزرزانة، كي تلفت الأنظار إلى رءوسهم في المدن التي سوف يمرون بها. و كان التصفيق لهؤلاء بالذات أكثر شدة و حماسا، بل إن أحدهم بصفة خاصة - و هو شاب في السابعة عشرة كان وجهه شبها بوجه فتاة - قد أثار مظاهر الحماسة و الانفعال و هو خارج من زنزانته حيث احتجز منذ ثمانية أيام، و كان قد صنع بنفسه من قش زنزانته رداء كان يغطيه من رأسه إلى قدميه، فدلل إلى الفناء و هو يلف و يدور حول نفسه في خفة لا تحاكيها إلا خفة ثعبان، فثارت بسببه عاصفة مجونة من التصفيق، و من صيحات المرور. و كان المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة يردون على ذلك من أبراجهم، فكان هذا التجاوب في المشاعر و تبادل المرح بين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة الراحلين لتنفيذ العقوبة و بين زملائهم الذين ينتظرون دورهم شيئاً مرعايا حقا. و مهما كان المجتمع هنا يمثله المسجانون و الفضوليون الذين استولى عليهم الذعر، فإن الجريمة

كانت تتحداه في تلك اللحظة وجهاً لوجه، و كانت تجعل من هذه العقوبة المفزعية عيدها عائلياً

و كلما وصل سجناء آخرون، كانوا يدفعونهم بين صفين كثيفين من الحراس إلى الفناء الصغير المحوط بالأسوار الحديدية حيث كان ينتظرونهم الأطباء. و هناك، بذل كل واحد منهم جهداً أخيراً ليتجنب السفر متعللاً بعذر من الأعذار الصحية: فهو إما مريض بعينيه، و إما مقطوع اليد، و إما أنه يرج بساقه، لكن الأطباء كانوا يجدونهم في الأغلب الأعم صالحين لليمان، فكان كل منهم يرضاخ عندئذ في غير مبالاة، متناسياً في دقائق قليلة عجزه المزدوم الذي كان مصاباً به طول حياته

ثم فتح باب الفناء الصغير مرة أخرى و أخذ أحد الحراس ينادي بأسماء السجناء مرتبة حسب الحروف الأبجدية، فخرج المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة عندئذ واحداً واحداً، و ذهب كل منهم ليتنظم واقفاً في الصف في ركن الفناء الكبير إلى جوار زميل له، جمعته به صدفة الحرف الذي يبدأ اسمه به. و هكذا كان كل واحد منهم يرى نفسه أمام نفسه، و كان كل واحد منهم يحمل قيده بنفسه جنباً إلى جنب مع شخص مجهول، و إذا شاءت المصادفة أن يجد أحدهم صديقاً له فيهم، فإن القيد الحديدي كان يحول بينهما و يفصله عنه فصلاً لا سبيل إلى الفكاك منه، فكان ذلك أبلغ الشقاء و أمره!

و بعد أن خرج نحو ثلاثين سجيننا أقفل الباب كما كان، ثم صفهم أحد الجنود صفاً بعضاً في يده، و ألقى أمام كل واحد منهم بقميص و سترة و سروال من قماش رخيص، ثم أشار بيده بإشارة خاصة فشرعوا جميعاً في خلع ملابسهم، غير أن حدثاً غير متظر وقع عندئذ، و كان قد تعمد اختيار تلك اللحظة بالذات ليحيل هذا الإذلال إلى عذاب

كان الطقس إلى تلك اللحظة جميلاً نوعاً ما، و لئن كان نسيم شهر أكتوبر يشيع البرودة في الجو، فإنه كان يشق من آن لأخر في غيوم السماء الرمادية اللون ثغرة كان يسقط منها شعاع من الشمس. و لكن ما كاد

المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ينزعون من على أجسادهم أسمال السجن  
البالية و يتقدمون عراة ليفحصهم الحراس المتشككون على مرأى من أعين  
الفضوليين الغرباء الذين كانوا يدورون من حولهم ليفحصوا أكتافهم، حتى  
أظلمت السماء فجأة و هطل وايل من أمطار الخريف التي تشبه السيل،  
فغمز الفناء المربع بالماء البارد و أغرق رؤوس السجناء الحاسرة و  
أوصالهم العارية و ملابسهم التعلسة الملقاة على الأرض

و في طرفة عين، كان مدخل الفناء قد خلا تماما من كل شخص لم يكن  
سجانا أو سجينا، و هرع فضوليوا باريس ليحتموا تحت مداخل الأبواب  
و مع ذلك، فقد استمر المطر ينهر مدرارا، و لم نكن نرى في الفناء سوى  
المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة و قد وقفوا عراة يتسبب الماء من فوق  
جلودهم على أرض الفناء الغارقة في الماء .. إن صمتنا حزينا قد أعقب  
تحديهم الصاخب فوقفوا يرتجفون، و أخذت أسنانهم تنصطك و سيقانهم  
الناحلة و ركبهم ذات العقد ترتعد فتصطدم الواحدة بالأخرى. و كان  
منظرهم يستوجب الشفقة حقا، و هم يسترون أجزاء أجسادهم العارية  
الزرقاء بهذه القمchan المبتلة و تلك الستر و السراويل التي يقطر منها  
الماء. لقد كان العرى خيرا لهم!

إن واحدا منهم، واحدا فقط، و هو شيخ مسن، كان قد احتفظ بشيء من  
المرح، فصاح قائلا و هو يجفف جسمه بقميصه المبتل: "إن هذا لم يكن  
ضمن البرنامج!" ثم أغرق في الضحك، و هو يلوح بقبضة يده نحو  
السماء

و بعد أن لبس السجناء ثياب السفر، اقتادهم حراسهم في مجموعات تضم  
عشرين أو ثلاثين شخصا إلى ركن مظلل من الفناء حيث كانت القيود  
الممدودة على الأرض في انتظارهم. و كانت تلك القيود عبارة عن سلاسل  
طويلة غليظة تقطعها أفقيا و على بعد قددين بانتظام سلاسل أخرى قصيرة  
قد ربط في طرفيها طوق من حديد مربع الشكل يفتح عن طريق "مفصلة"  
في أحد جوانبه، و يقلل من الجانب المقابل "ببرشمنة بالحديد" و يظل هذا

الطرق الحديدى حول رقبة السجين طول مدة الرحلة و عندما نشرت كل هذه السلسل على الأرض بدت لي كأنها هيكل عظمي لسمكة ضخمة و أجلس السجناء في الوحل على الأرض الغارقة في الماء و بعد أن قبست الأطواق على أنفاسهم، جاء حدادان من السجانين مزودان بسندانين متقللين فبرشموا لهم تلك الأطواق "على البارد" بطرقها طرقا شديدا بمطرقة من حديد. كانت هذه لحظة رهيبة اصفر لها وجه أكثر السجناء شجاعة! لقد كانت كل ضربة من المطرقة على السنдан المسند إلى كتف السجين من ناحية ظهره تجعل ذقن المسكين تقفز إلى الأمام، و كانت أدنى حركة يمكن أن يأتي بها السجين من الأمام إلى الخلف كفيلة بأن تطيح بجمجمته كأنها قشرة "عين جمل!"

و ما إن تمت هذه العملية حتى وجم السجناء و أظلمت وجوههم، و لم يعد يسمع إلا صليل السلسل و صوت مكتوم كان يتعدد بين حين و آخر، صوت عصي السجانين على أجسام من يبدون تمنعا أو مقاومة .. لقد كان بعض هؤلاء السجناء يبكون، و كان الشيوخ منهم يرتدون و هم يغضون على نواجذهم، و وقفت أنا في نافذة الزنزانة أطل على الفناء و أنظر في رعب إلى كل تلك الصور المحزنة في إطارها الحديدى و هكذا فإن زيارة السجانين تلت زيارة الطبيب، و أعقب زيارة السجانين تركيب الأطواق الحديدية حول رقب السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشقة .. لقد كان مشهدا مؤلفا من ثلاثة فصول!

و ظهر شعاع الشمس من جديد فبدا كأنه قد أشعل كل هذه العقول، إذ نهض السجناء معا دفعة واحدة، كما لو كانوا قد تحركوا بفعل الحمى، و تشابكت أيدي سجناء السلسل الخمس الطويلة و انتظموا فجأة في حلقة ضخمة حول عمود المصباح الذي يتوسط الفناء، و أخذوا يدورون من حوله على نحو يتعب البصر و هم ينشدون إحدى أغاني اليمان في لغة عامية دارجة، و في نغمة تارة شاكية باكية، و أخرى صاحبة مرحة. و كنت أسمع بين حين و آخر صيحات جافة و ضحكات ممزقة لا همة تمتزج

كلمات هذه الأغنية الغريبة، ثم تلا ذلك تصفيق حاد مجنون، بينما كانت القيود الحديدية تصلصل و يصطك بعضها ببعض فتحدث نغماً كان بمثابة الموسيقى لتلك الأغنية، و هي موسيقى كانت أشد خشونة من ضوضائهم! و لو بحثت في مخيلتي عن صورة للغاريت فلن أستطيع أن أتخيلها أحسن و لا أسوأ من هذه الصورة!

ثم أحضر إلى الفناء طست كبير، و قطع السجانون على السجناء رقصهم بضربات من عصيهم، ثم ساقوهم إلى هذا الطست حيث كان المرء يرى شيئاً طافياً كالعشب - لست أدرى ما هو - في سائل ساخن كان يتصاعد منه البخار لست أدرى ما هو كذلك، فأخذوا يأكلون و بعد أن فرغ السجناء من أكلهم ألقوا بما تبقى من طعامهم هذا و من خبزهم الأسود على بلاط الفناء ثم عادوا إلى الرقص و الغناء من جديد، و يبدو أنهم يتذرون لهم شيئاً من هذه الحرية يوم يكتبون في الأصفاد و كذلك في الليلة التي تليها

و مكثت أرقب هذا المشهد الغريب في يقطة كبيرة، و استطلاع منهوم، و انفعال عميق، حتى أني نسيت نفسي تماماً إن شعوراً جارفاً من الشفقة كان يجتاحني فيمزق أحشائي، و كانت ضحكاتهم تملأ عيني بالدموع و فجأة، و خلال هذا الحلم العميق الذي كنت مستغرقاً فيه رأيت الحلقة الضخمة تكف عن الصياح و الدوران، و ساد صمت عميق ثم فجأة اتجهت أنظارهم إلى النافذة التي كنت أشغلها، و صاحوا جميعاً، و هم يشيرون إلى بأصابعهم قائلين: "المحكوم عليه بالإعدام! .. المحكوم عليه بالإعدام!" .. و قد غمرهم في تلك اللحظة مرح مضاعف .. و تصلبت في مكاني متجرأ! فقد كنت أجهل من أين عرفوني و كيف تعرفوا علي!

و صاحوا بي قائلين، و هم يطلقون ضحكات ساخرة بشعة: "عمت صباحاً! .. طاب مساواك!" .. و نظر إلى واحد من بينهم، و هو شاب يافع كان أصغر المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة سناً، و كان وجهه

خسنا لاما جامد الملامح، نظر إلى نظرة تفيض بالحسد، و هو يقول: "إنه لسعيد الحظ! فسوف يمحى من العالم! وداعا أيها الزميل!"  
لست بمستطاع أن أعبر عما كان يدور في نفسي .. إنني كنت في الواقع زميلا لهم، فساحة الإعدام هي شقيقة لليمان "طولون"، بل إنني كنت في درك أسفل منهم! .. إنهم كانوا يشرفونني ..  
و اجتاحتني رجفة عاتية .. نعم، إني زميل لهم و من الممكن أن أصير - أنا نفسي - بعد أيام مشهدا يملا عليهم أبصارهم!  
و كنت قد بقىت في النافذة بلا حراك و قد شلت أوصالي، و تملكتني الذهول. و لكنني حينما رأيت سجناء السلسل الخمس الكبرى يتقدمون إلى الأمام ثم يندفعون نحوي و هم يوجهون إلى كلمات ودية جهنمية، و حينما سمعت ضجيج قيودهم الفظيع يختلط بصيحاتهم المجلحة، و بوقع خطواتهم تحت نافذتي عند أسفل الجدار، خيل إلى أن هذه الشرذمة من الشياطين كانت تتسلق البناء إلى زنزانتي التعرية، و أطلقت صيحة مروعة ثم اندفعت نحو الباب و أقيمت نفسي عليه بكل قواي كي أحطمه، لكنني لم أجد سبيلا إلى الفرار، فقد كان الباب مقفلًا من الخارج بالمزلاج .. و عدت أحاول اقتحام الباب، و أنا أنادي و أصرخ في جنون، فبدا لي وقتئذ أنني كنت أسمع أصوات السجناء المخيفة تقترب مني أكثر فأكثر، و ظننت أنني أرى رؤوسهم المنكرة تبدو بسرعة على حافة نافذتي، فصحت صيحة فزع أخرى مدوية ثم سقطت مغشيا علي.

## الحن الحزين

### الفصل 14

و عندما أفقت من غشائي كان الليل قد أقبل، ووجدت نفسي راقدا فوق "برش"، و كان هناك مصباح ترتجف ذبالتة قرب السقف مكتنني من أن أرى "أبراشا" أخرى مرصوصة إلى جوار "برشى" عن يمين، و عن شمال، فادركت أنهم نقلوني إلى مستشفى السجن

و ظللت مستيقظا لحظات، و لكن بلا تفكير و بلا ذكرة و قد أحسست بسعادة غامرة لأنني نائم على سرير. و ليس ثمة شك في أن سرير المستشفى هذا كان خليقا في أي ظرف آخر بأن يجعلني أفر منه شفقة و اشمئزازا، غير أنني كنت قد أصبحت شخصا آخر .. كانت ملاءة هذا السرير رمادية اللون خشنة الملمس، و كان الغطاء ممزقا، و كنتأشعر بقش الزنزانة من خلال تلك "المربطة" .. و لكن هذا لم يكن بهم! .. فقد كان في وسعي أن أبسّط أطرافي كما يرproc لي فوق هذه الملاءة الرخيصة و تحت هذا الغطاء مهما بلغ من الرقة، و كنت أحس رويدا رويدا بزوال هذا البرد المروع الذي كان ينفذ حتى نخاع العظام، و الذي كنت قد أفلته في الزنزانة، فاستسلمت مرة أخرى للنوم

و استيقظت من نومي على صوت جلة كبيرة، و كان الوقت فجرا. كان الصوت يأتي من الخارج، و كان سريري بجوار النافذة، فنهضت و جلست في الفراش لأستجلي مصدر هذا الصوت ..

كانت النافذة تطل على الفناء الكبير في سجن "بيمستر"، و كان هذا الفنان يعج بالناس حيث كان صfan من جنود السجن القدامى الأشداء يجدان مشقة كبيرة في الاحتفاظ بممر مفتوح عبر الفنان بين هذه الكتل من الجماهير، و بين هذين الصفين من الجنود كانت خمس عربات "كارو" محملة بالرجال تتقدم في بطء و هي تتعرّض عند كل "بلاطة" .. كان هؤلاء الرجال هم السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة الذين تقرر رحيلهم

كانت هذه العربات مكشوفة، و كانت كل واحدة منها محملة بمجموعة من السجناء تربطهم إحدى السلاسل الطويلة الخمس، و قد جلسوا على جانبها و اتكاً بعضهم على بعض، تفصل بينهم السلسلة المشتركة التي كانت تمتد بطول العربية، و التي كان يقف عند آخرها على قيد خطوة من سلمها جندي يشهر بندقية معدة للإطلاق. و كانت صلصلة الأصفاد الحديدية تسمع عند كل هزة من هزات العربية، كما كانت رؤوس السجناء ترى و هي تقفز، و سيقانهم المعلقة تتارجح هنا و هناك

و كان ثمة رذاذ نافذ ينثأج الهواء و يجعل سراويل السجناء الرمادية المصنوعة من التيل و التي كانت قد اسودت، يجعلها تلتتصق بركتباتهم، و كان ماء المطر يتصلب من لحاظ الطويلة و من شعرهم القصير و يغمر وجوههم التي صارت بنفسجية اللون و كنت أراهم و هم يرتجفون و قد أخذت أسنانهم تصطك من البرد و الغضب

و كان هؤلاء السجناء من جهة أخرى عاجزين عن الحركة، إذ أن المرء عندما يربط سلسلة كهذه فإنه لا يصبح إلا جزءاً من تلك الكتلة القبيحة التي يسمونها "الكردون" و التي تتحرك كأنها رجل واحد .. إن الذكاء لا بد عندئذ أن ينمحى، فطوق الليمان الملفوف حول العنق يخنق العقل و يحكم عليه بالموت، أما الحيوان نفسه<sup>1</sup> فيجب ألا تكون له حاجات أو شهية للطعام إلا في ساعات محددة

و هكذا، فإن السجناء كانوا لا يستطيعون حركة و قد أصبحوا شبه عراة، و رؤوسهم حاسرة و أرجلهم معلقة في الهواء. كانوا يبدأون، على هذا النحو، سفرهم الذي يستغرق خمسة وعشرين يوماً، و هم محمولون على نفس العربات و يرتدون نفس الثياب، تحت وهج الشمس المحرقة و تحت أمطار نوفمبر الباردة، حتى ليبدو أن الناس كانوا يريدون أن تشارکهم السماء مناصفة القيام بعملهم كجلادين!

<sup>1</sup> يعني الناحية الحيوانية في السجين، أي البدن و مطالبه

و كان قد نشب بين هذا الجمهور و بين العربات حوار رهيب: سب من ناحية، و تحد من الناحية الأخرى، و شكاوى و شتائم من الجانبين .. و لكن ما هي إلا إشارة صدرت من القائد<sup>2</sup> حتى رأيت وابلا من ضربات العصي التي كان يحملها الجنود ينهال على العربات الخمس فيغرق أكتاف السجناء أو رؤوسهم بلا تمييز، فعاد كل شيء إلى الهدوء، و لكنه كان ذلك الهدوء الظاهري الذي يسمونه نظاما، إذ كانت أعين هؤلاء التعباء تقip بالانتقام، و كانت أيديهم تتقلص على ركبهم في عنف ظاهر

و اختفت العربات "الكارو" الخمس، التي كان يحرسها فرسان الدرك و جنود السجون المشاة، واحدة بعد أخرى تحت ذلك الباب المرتفع ذي "القبة"، باب سجن "بيستر"، و تبعتها عربة ملائكة تكادت عليها الموافد والأواني النحاسية و السلاسل الاحتياطية<sup>3</sup> .. و كان نفر من السجانين قد تأخروا قليلا في المقصف<sup>4</sup> فخرجوا مسرعين ليلحقوا بالعربات

ثم انقض الجمهور و تلاشى هذا المنظر كأنه رؤيا أو خيال عابر، وأخذت الجلبة التي كانت تصدر عن تلك العربات الثقيلة تتضاعل شيئا فشيئا و يضعف معها وقع سنابك الخيول على طريق "فونتينبلو" المرصوف، و قرقعة السياط، و صلليل السلسل، و صيحات الجماهير الذين كانوا يتمون للسجناء في سفرهم كل المصائب و النكبات

و مع ذلك، فقد كان هذا بالنسبة إليهم مجرد بداية فحسب! فماذا كان يقول لي المحامي ابن؟ .. الأشغال الشاقة المؤبدة! .. آه! إن الموت خير عندي ألف مرة! إني أفضل المشفقة على الليمان، و الفناء على جهنم<sup>5</sup> ، و أوثر أن أسلم رقبتي لسكين الدكتور "جيوتان" على أن أسلمها لطوق السجان!

آه! الأشغال الشاقة المؤبدة؟! .. رحماك أيتها السماء العادلة!

<sup>2</sup> الكابتن: قائد حرس السجن

<sup>3</sup> سلاسل و أطواق حديدية إضافية و قطع غيار للطوارئ

<sup>4</sup> "كانتين" السجن

<sup>5</sup> يعني المؤلف عذاب الليمان و الأشغال الشاقة المؤبدة

## الفصل 15

لم أكن مريضاً لسوء الحظ، و اضطررت في اليوم التالي إلى الخروج من مستشفى السجن لتتلقنني الزنزانة مرة ثانية  
إنني لست مريضاً! هذا حق، فأنا شاب قوي، أستمتع بصحة جيدة و يجري الدم في عروقي في حرية، وكل أعضاء جسمي تطيع سائر نزواتي .. أنا قوي الجسم و الروح، و تكويني يمكنني من أن أعيش طويلاً .. نعم، إن هذا كله صحيح .. و مع ذلك، فباني مصاب بمرض آخر، بمرض مميت من صنع يد الإنسان

فمنذ أن خرجم من مستشفى السجن تملكتي فكرة مؤلمة، فكرة سوف تورثني الجنون! فقد خطر بيالي أنني ربما استطعت الهرب لو أنهم تركوني في هذا المستشفى، فهو لاء الأطباء و الراهبات كان يبدو أنهم يعنون بأمرني .. إنني سوف أموت هكذا و أنا بعد شاب صغير السن .. سوف أموت مثل هذه الميئات الشناعاء!

لقد بدا لي أنهم كانوا يرثون لحالتي لكثرة ما كانوا يحومون حولي و يتراحمون إلى جوار سريري .. آه! صمتاً أيها التعس! .. فهو مجرد حب استطلاع فحسب .. و فوق هذا، فهو لاء الأشخاص و إن حاولوا إنقاذي حقاً من الحمى، فليس في استطاعتهم أن ينقذوني من حكم الإعدام! .. و مع ذلك، أفلبس الأمر يسيراً عليهم للغاية؟ مجرد باب يترك مفتوحاً! ماذما يضيرهم لو أنهم فعلوا ذلك؟

و لكن وا حسرتاه! لم تعد أمامي فرصة الآن .. إن طلب الاستئناف الذي تقدمت به سوف يرفض لأن كل شيء قد سار طبقاً لنص القانون، فقد شهد الشهود شهادة كاملة، و ترافع المترافعون مرافعة جيدة، و حكم القضاة حكماً صحيحاً! إنني لا أأعول على الاستئناف، اللهم إلا .. كلا، كلا .. إن هذا ضرب من الجنون! و لم يعد ثمة أمل! فطلب استئناف الحكم ليس إلا حبلاً يمسك بتلابيبك و أنت معلق فوق الهوة فتسمعه و هو يتآكل قليلاً

مع كل لحظة حتى ينقطع تماما .. إنه كسجين المقصلة عندما تهوي على عنق المرء في سنة أسابيع!

آه لو صدر عفو عنِي! .. عفو؟! .. من ذا الذي سوف يصدره؟ و لماذا؟ و كيف؟ .. من المحال أن يصدر العفو عنِي، كل ذلك عبرة للناس، و ضرب مثل .. كما يقولون

لم تعد هناك أمامي سوى ثلاثة خطوات أخطوها، ثلاثة فحسب: سجن "بىستر" .. ثم سجن "الكونسيير جوري" .. وأخيرا، ساحة الإعدام!

## الفصل 16

و كنت قد جلست في الشمس بجوار النافذة خلال الساعات القليلة التي قضيتها في المستشفى .. إن الشمس قد عادت إلى الظهور، أو على الأقل، كنت أتلقي من أشعتها كل ما كانت تسمح لي به منها قضبان النافذة الحديدية

جلست هناك وقد وضعت رأسي الثقيل المحموم بين يدي اللتين كانتا لا تقويان على حمله، و أسدلت مرفقي إلى ركبتي و قدمي إلى قضبان مقعدي، لأن الإنهاك كان قد بلغ مني مبلغا جعلني أحنني و أنتني على نفسي كما لو كنت جسما لم تعد في أوصاله عظام و لا في لحمه عضلات و كانت رائحة السجن التي تزكم الأنوف تخنقني أكثر من أي وقت مضى، و كانت أصوات كل هؤلاء السجناء المختلطة بصليل سلاسلهم لا تزال تطن في أذني، و كنت أقاسي كللا كبيرا في سجن "بىستر"، حتى أنه كان يبدو لي أن الله في عله و رحمته سوف تأخذ الشفقة بي فيرسل إلى طائر صغيرا على الأقل ليغرد هنا أمامي على حافة هذا السقف الأردواري المنحدر

و لست أدرى إن كان الله الرحيم هو الذي استجاب عندئذ لدعائي أو أنه الشيطان الرجيم، فقد سمعت في نفس اللحظة تقريبا صوتا يرتفع تحت نافذتي و لكنه لم يكن صوتا لطائر، و إنما كان أجمل من ذلك بكثير .. كان صوتا نقيا، صوتا نضرا شجيا لفتاة في الخامسة عشرة .. فرفعت رأسي

فجأة كإنسان أدركه الفزع، و أخذت أستمع في نهم إلى الأغنية التي كانت ترددتها الصبية في نغم بطيء حزين كأنه هديل الحمام .. فجاءني صوتها ينوح قائلًا:

كان ذلك في شارع "ماي" ..

حيث اعتدى على قهرا ثلاثة أشقياء ..

ثلاثة ملاعين هجموا على ..

و لم أستطع أن أعبر عن مدى مرارة الصدمة التي أحسست بها في تلك اللحظة .. و استطرد الصوت يقول:

لقد هجموا على و طرحوني أرضا

و من شاب من حيناً مصادفة

فقلت له: إنني في محنة ..

بلغ ذلك لفتياً حيناً الشجعان!

فقال لي: "إنني هزّت شجرة البلوط

و نزعت منها كثيراً من الأغصان"

فلوسعهم ضرباً حتى تركوني

و فررت و حذاني ممزق، و كذلك ملابسي

لسوف أرقص مع هذا الفتى في يوم العيد

و لم يسبق لي أن سمعت هذه الأغنية من قبل، و كنت لا أستطيع أن أسمع المزيد من كلماتها التي كانت تحمل بين طياتها شكوى مفهومة و غامضة

معاً .. كما غنت الفتاة كذلك أغنية تقصد شجاراً وقع بين مجرم و بين رجال الدرك، و تتحدث عن لص يقابل شخصاً و يرسله إلى زوجته بهذه

الرسالة الرهيبة: "إنني قتلت رجلاً و قبض على"، و أغنية أخرى<sup>6</sup> جاء

بها:

<sup>6</sup> ترجمنا مضمون هذه الأغنية بمعناها حسب لتعذر نظمها في أبيات موزونة و مقامة كما وردت في النص الفرنسي

إن سيدة ذهبت إلى قصر "فرساي" لتشكو مجرماً إلى الملك، و أن صاحب الجلالة قد ثار لذلك، و قال متوعداً المذنب أنه: "سيجعله يرقص دون أن تكون هناك "أرضية" تحت قدميه!"

كانت الصبيحة تردد كل تلك الأغاني في نغمة حلوة تفيض بالرقة والحنان، و في صوت لم تسمع أذن امرئ قط أشجع و لا أعنف منه! حتى أنتني جلست في مكانى محظماً مبهوتاً تغمرنى الحسرة والأسف! فقد كانت كل تلك الكلمات الفظيعة المنبعثة من هذا الفم النضر الجميل شيئاً يبعث على الاشمئزاز حقاً .. كانت تبدو و كأنها لعب قوقة فوق وردة يانعة! و ما أنا بمستطاع أن أصور ما كنت أشعر به وقتئذ، لقد كنت مجروهاً، و مسروراً في آن واحد! إن لهجة الكهف و الليمان، هذه اللغة الدامية الفظة ذات الرنة الكثيبة و الطابع العامي<sup>7</sup> التي امترخت بصوت فتاة يافعة في فترة انتقال لطيفة بين صوت طفلة و صوت امرأة، كل تلك الألفاظ رديئة الصياغة كانت الفتاة تغنيها، و ترتلها، و تنظمها درراً ثمينة. آه! ما أشد عار السجن و شناعته! إن فيه لسماً يلطف كل شيء. كل شيء فيه يذبل، حتى أغنية فتاة لا تتجاوز الخمسة عشر ربيعاً .. إذا عثرت فيه على طير، وجدت جناحه ملطخاً بالوحول .. و إن قطفت به زهرة و شمعتها، تاذيت من راحتها

البغضة

## الفصل 17

آه! لو كنت أستطيع الفرار، لجريت عندنـذ خـلال الحقول بكل ما أوتيت من قوة و عزم!

كلا، فلا ينبغي أن أجري وقتئذ، فذلك يلفت الانظار و يبعث على الريبة و الشك، بل إن الأمر على العكس، إذ يجب على أن أسير في تؤدة و أنا أغنى مرفوع الرأس .. يجب أن أحـاول جـاهـداً أن أحـصـل على قـميـص عـتيـق مـفـتوـح أـزـرق اللـون و بـه رـسـوم حـمـراء، فـهـذا يـحـكم التـنـكـر، إذـ أنـ كلـ بـانـعـيـ الخـضـرـ فيـ الضـواـحـيـ يـلـبـسـونـ مثلـ ذـلـكـ

<sup>7</sup> اللهجة الشانعة بين الدهماء و الطبقات المنحطة أو الجاهلة

إني أعرف على مقربة من "أركوي"<sup>8</sup> أحمة من الأشجار بجوار مستنقع من المستنقعات حيث كنت أتردد مع رفافي لصيد الضفادع في يوم الخميس من كل أسبوع عندما كنت طالباً بالمدرسة الثانوية، وسوف أختبئ هناك إلى أن يهبط الظلام، ثم أستأنف سيري تحت جنح الليل كي أذهب إلى "فانسين" .. كلا، كلا .. فسوف يحول النهر هناك بيبني وبيني المضي قدماً، سوف أيمم إذن شطر "أرباجون" - وسوف يكون من الأوفق أن أتجه ناحية "سان جرمان" ، ثم أذهب إلى "الهافر"<sup>9</sup> و أستقل آية سفينه إلى إنجلترا - و لكن ما جدوى كل ذلك؟ إذ لا أكاد أصل إلى "لونجيمو" حتى يمر بي جندي من رجال الدرك و يتطلب إلي أن أبرز بطاقتى الشخصية! .. إيني هالك لا محالة! لقد ضعت!

آه! يا لي من حالم باس! علي إذن أن أحطم الجدار أولاً .. أن أحطم الجدار الذي يسجنني و سمه ثلاثة أقدام! .. الموت يا إلهي! .. الموت!

عندما أفك في أنني أتيت إلى هنا، إلى "بيستر"، و أنا غلام صغير لأرى البئر الكبيرة ... و المجانين آه!

### الفصل 18

و فيما أنا عاكف على كتابة هذا كله ذوى نور مصباحي و طلع الفجر .. ثم دقت ساعة الكنيسة الصغيرة تعلن السادسة

ما معنى ذلك؟ .. إن حارس زنزانتي النوبتجي دخل لتوه عندي و خلع قبعته، ثم حيانى معتذراً عما سببه لي من إزعاج، و طلب مني أن أعين له ما أريده طعاماً لفطوري، طلب مني هذا، و هو يحاول جاهداً أن يكسب نبرات صوته الغليظ الخشن مسحة من الرقة و الظرف

فاجتاحتني رجفة عاتية، و همس في أعماقى صوت يقول:

"ترى أيتم اليوم تنفيذ الحكم؟"

### الفصل 19

<sup>8</sup> مكان في ضواحي باريس

<sup>9</sup> ميناء فرنسي على بحر المانش

نعم .. إنه اليوم!

لقد حضر مدير السجن بنفسه لزيارتي و سألني كيف يستطيع أن يرضيني و كيف يمكن أن يكون نافعا لي في أي شيء، و عبر لي عن أمله في إلا تكون لدى أية شكوك منه أو من مرءوسيه، ثم سألني في اهتمام عن صحتي، و عن الحال التي قضيت فيها الليل .. و خاطبني بقوله: "يا سيدي" و هو يغادر الزنزانة!

إنه اليوم!

## الفصل 20

إن هذا السجان لا يعتقد أن لدى شكوك منه أو من مرءوسيه .. إنه على حق، فسوف لا تنفعني الشكوى .. إنهم قد قاموا بواجبهم فحرسوني خير حراسة، و فوق هذا، فقد كانوا مؤذين عند وصولي و عند رحيلي .. أفلاب ينبغي إذن أن أكون راضيا مسرورا؟

إن هذا السجان الطيب إنما يمثل السجن مجسما، بابتسامته الساذجة العذبة، و كلماته الرقيقة اللطيفة، و عينه التي تمتدا و تتجسس، و يديه الضخمتين العريضتين .. إن سجن "بىستر" قد تقمص هذا الرجل .. كل شيء من حولي هو سجن بالنسبة إلي! إنني أجده السجن في جميع الصور و الأشكال: أجده في صورة الإنسان كما أجده في شكل القضبان أو في المزاليج و الأقفال .. فهذا الجدار سجن من الحجر، و ذاك الباب سجن من الخشب، و هؤلاء الحراس سجن من لحم و عظم .. إن السجن كائن خفي رهيب شامل لا يتجزأ، نصفه سكن و نصفه إنسان، و أنا فريسته، و هو يحيطني بمخالبه و يحتضنني بكل جوارحه و ثناياه، فهو يغلق علي جدرانه المبنية من الجرانيت، و يقفل علي بأقفال من الحديد، و يراقبني بعيني السجان آه! يالي من بائس. ماذا سيحدث لي؟ ماذا سيفعلون بي؟

# الكاهن

## الفصل 21

إنني الآن هادئ، فقد انتهى كل شيء، انتهى تماما .. لقد خرجت من دوامة القلق المرعبة التي كانت قد أفلتني فيها زيارة الطبيب. ذلك أنني أعترف بأنني كنت لا أزال أمل، أما الآن، و الحمد لله، فلم يعد ثمة أمل لي و هذا هو ما حدث منذ لحظة:

حينما دقت الساعة معلنة السادسة و النصف - بل إن ذلك كان في الربع الأخير من هذا النصف - فتح باب زنزانتي من جديد و دلف إليهاشيخ أشيب الشعر، يرتدي "ردنجوتا" قاتم اللون. و فتح الرجل. و فتح الرجل "الردنجوت" قليلا فرأيت ثيابه البيضاء، و "ياقتته" الناصعة. لقد كان قسيسا

لم يكن هذا القسيس واعظ السجن، و هذا أمر كنيب. و جلس الرجل قبالي، و قد ارتسست على شفتينه ابتسامة عريضة، ثم هز رأسه و رفع بصره إلى السماء، أعني إلى السقف، سقف الزنزانة! .. لقد فهمت! و قال لي رجل الدين:

- أنت على استعداد يابني؟

فأجبته قائلا في صوت مختنق:

- لست مستعدا و لكنني "جاهز"!

و مع ذلك، فقد غامت عيناي، و اضطرب بصرى، و نضج من كل أعضاء جسمى عرق بارد غزير، و أحسست بصداع ينتفخان، و امتلأت أذناي بالطنين

و كان الشيخ الطيب يتكلم، بينما كنت أترنح على مقعدي كإنسان نائم، أو هذا هو على الأقل ما بدا لي في تلك اللحظة، و أحسبنى أنكر أنني رأيت شفتينه تتحركان، كما رأيت بريق عينيه، و اهتزاز يديه

و فتح باب الزنزانة مرة أخرى، فأخرجني صرير المزاليل من ذهولي و قطع على الرجل حديثه، ثم دخل سيد لم أره من قبل، يرتدي ثيابا سوداء و

معه مدير السجن. و قدم الرجل نفسه إلى، وحياني في احترام عميق. وكانت ترسم على وجه الرجل مسحة من حزن " رسمي" مصطنع، هو نفس الحزن الذي تراه على وجه اللحاد "الحانوتي" و معاونيه، و كان يمسك في يده ورقة ملفوفة

و قال لي الرجل و هو يبتسم ابتسامة مؤدية:

- سيدى .. إني "محضر" من قبل محكمة باريس الملكية، و يشرفني أن أحمل لك رسالة من قبل السيد النائب العام فأجبته قائلاً بعد أن ذهب عنى أثر الهزة الأولى، و استعدت حضور ذهني كله:

- إنه السيد النائب العام ذاته الذي طالب برأسى في الحال، و إنه لشرف كبير لي يا سيدى أن يكتب إلى، و أمل أن يتلخص موتي صدره و يدخل على نفسه أبلغ السرور، إذ يشق على أن أعتقد أنه ألح في طلب موتي بحماس كبير في الوقت الذي لن يهتم فيه بهذا الأمر بعد الآن لقد قلت هذا كله و سكت لحظة، ثم استطردت أقول في صوت ثابت النبرات: "اقرأ ما عندك إذن يا سيدى!"

فأخذ "المحضر" يقرأ على رسالة طويلة، و هو يتغنى في نهاية كل سطر، و يتعدد في وسط كل كلمة. كان ذلك رفضاً للطلب الذي تقدمت به لاستئناف الحكم. و أضاف الرجل قائلاً بعد أن فرغ من تلاوة رسالة النائب العام، و دون أن يرفع بصره عن أوراقه المدموعة: "إن الحكم سينفذ اليوم في ساحة الإعدام، و سوف نرحل في تمام الساعة السابعة و النصف إلى سجن "لاكونسيير جوري". هل لك أن تتفضل فتتبعني يا سيدى العزيز؟"

و كنت لم أعد أنصت إلى الرجل منذ وقت ليس بقصير. و كان مدير السجن يتبادل الحديث مع القيسىس، بينما ظلت عينا "المحضر" مثبتتين على أوراقه، و كنت أنا إلى جوار الباب الذي كان لا يزال موارباً. آه! أيها التعس! هناك في الدهلiz أربعة حراس معهم بنادقهم!

و أعاد "المحضر" سؤاله على و هو ينظر إلى في هذه المرة، فأجبته  
قولاً:

– سأتبعدك يا سيدى في أي وقت تريده. إننى رهن إشارتك!

فحينما قائلًا و هو يتهيأ للانصراف:

– سوف أتشرف بالحضور لاصطحابك معى بعد نصف ساعة  
و انصرف الجميع عندئذ و تركوني وحدي

يا إلهي! أ ما من وسيلة للفرار؟ أية وسيلة كانت؟ يجب أن أهرب. هذا لا  
بد منه، و في الحال! من الأبواب، من النوافذ، أو من خلال فتحات أخشاب  
السقف، حتى لو كلفني هذا أن أترك لحمي على هذه الألواح! يا للغضب!  
يا للشياطين! يا لللعنة! لسوف تلزمني أشهر بأكمليها لنقب هذا الجدار، إن  
كانت هناك آلات جيدة، مع أنى لا أملك مسمارا واحدا، و لم تعد أمامي  
حتى ساعة واحدة!

**الفصل الثالث**

# **الطريق إلى الموت**

# في سجن "لاكونسيير جوري"

## الفصل 22

هأنذا قد نقلت كما قال "المحضر"، غير أن الرحلة جديرة بأن تروى كانت الساعة تدق السابعة و النصف عندما ظهر المحضر مرة أخرى على عتبة زنزانتي. و قال لي الرجل: "إني في انتظارك يا سيد" يا للأسف! إنه كان ينتظرني حقاً، و كان معه آخرون! فنهضت من مكانه و خطوت خطوة واحدة، فبدأ لي لحظتها أني ساعجز عن أن أخطو خطوة أخرى لشدة ما كنت أشعر به من نُقل في رأسي و خور في ساقي، و لكنني مع ذلك تملكني نفسي، و تابعت السير في شيء من الإرادة و الثبات. و أقيمت نظرةأخيرة على سجن "بيستر" قبل أن أغادره – فقد كنت أحـب زنزانتي هذه – و يؤسفني أني تركتها خالية و مفتوحة، مما أكسبها مظهراً غريباً!

إنها لن تظل هكذا طويلاً على كل حال، فقد كان حاملاً مفاتيح السجن يقولون إنهم ينتظرون شخصاً سوف ينزل فيها في هذه الليلة، و هو رجل محكوم عليه، كانت محكمة الجنائيات بصدده النظر في أمره في هذه الساعة و لحق بنا الواقع في نهاية الدليل، و كان الرجل قد فرغ للتو من تناول طعامه

و عند خروجي من الزنزانة، أمسك مدير السجن بيدي في عطف، و شدد على الحراسة بأربعة جنود من حراس السجن القدامي

و أمام باب مستشفى السجن، صاح بي شيخ يحتضر قائلاً: "إلى اللقاء!" و بلغنا الفناء و استنشقت الهواء، فأراحتني هذا بعض الشيء و لم نمش طويلاً، إذ كانت هناك عربة تجرها جياد قوية واقفة في الفناء الأول .. آه! إنها نفس العربية التي كانت قد نقلتني إلى هنا. كانت من نوع العربات المستطيلة المكشوفة، و مقسمة إلى قسمين بقضبان من حديد، تتقطّع على شكل شبكة شديدة الكثافة، و كان لكل قسم من قسميها باب، أحدهما في مقدمة العربية، و الثاني في مؤخرتها. و كانت العربية بأسرها شيئاً بالغ

القذارة، أسود اللون حالكه، و مغطى بالغبار، إلى حد أن عربة نقل الموتى كانت تبدو إلى جوارها كأنها عربة لتنوير الملوك و قبل أن أدفن في هذا القبر ذي العجلتين، أقيمت نظرة على الفناء، نظرة إنسان يائس، كان يأمل بها أن تندفعى من أمامه الجدران. كان الفناء و هو مكان صغير مزروع بالأشجار، كان ممتنعاً بالمتفرجين أكثر مما كان يوم تكبيل المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة بالأصفاد إذ كان الناس قد احتشدوا بسرعة مذهلة

و كان مطر الخريف يتتساقط وفتقتد كما حدث يوم رحيل السجناء المكبلين بالسلسل، و هو مطر دقيق بالغ البرودة، لا يزال يهطل في هذه الساعة التي أكتب فيها، و سوف يستمر طول النهار دون شك، و سوف يستمر كذلك حتى بعد أن أرحل عن هذه الدنيا و كانت الطرق مملوءة بالمياه و "المطبات"، و كان الفناء غارقاً في الماء و الوحل، و خامرني ساعتها شعور بالسرور لرؤيه هذا الجمهور في الوحل

و صعدنا إلى العربة، فركب المحضر مع أحد الحراس في القسم الأمامي منها و ركبت أنا مع القسيس و حارس آخر في المؤخرة، و كان معنا أربعة جنود على ظهور الخيول يحيطون بالعربة، و هكذا كان هناك ثمانية رجال - إذا استثنينا سائق العربة - يحرسون رجلاً واحداً

و فيما كنت أهم بالصعود إلى العربة رأيت امرأة عجوزا ذات عينين رماديتين كانت تقول: "إني أفضل هذا كثيراً على السلسل!"

إنتي أفهم ذلك، فهو منظر يحيط به المرء بنظرة واحدة، يحيط به في سهولة و سرعة أكثر مما يحيط بمنظر السلسل، و هو منظر جميل مثل هذا المنظر الأخير، و لكنه أكثر منه راحة، و ليس فيه ما يسليك، إذ أنه ليس هناك سوى رجل واحد، و على هذا الرجل وحده يقع من الكوارث ما يعادل الكوارث التي تقع على كل المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة

مجتمعين، غير أن الشقاء فيه ليس موزعا بين كثرة من الناس، وإنما هو مركز، كالخمر المركزة تكون أكثر لذة للشاربين و تحركت العربية فند عنها صوت مكتوم و هي تمر من تحت قبة الباب الكبير، ثم خرجت إلى عرض الشارع، فأغلق خلفها باب سجن "بستر" الثقيل. و كنت أحس في ذهول باني محمول كإنسان فاقد الوعي، لا يستطيع أن يتحرك أو يصبح، و يشعر بأن أناسا يدفونه، و كان رنين الأجراس الصغيرة المعلقة في رقب الخيل يصل إلى سمعي في غير وضوح، تلك الأجراس التي كانت تجلجل بطريقة منتظمة في رقب جياد العربية و كأنها مصابة "بالزغطة"، و كانت عجلات العربة المغطاة بالحديد تتخطى على الطريق المرصوف، أو تتحاكم بصندوق العربية و هي تنتقل من "مطب" إلى "مطب"، محدثة صوتا يختلط بوقع سنابك الخيل التي تحبط بالعربة لحراستها، و قرقعة السوط الذي يحمله السائق، كل ذلك كان يبدو لي كأنه دوامة تحملني و تلفني في طياتها و من خلال قضبان نافذة صغيرة في العربية كانت مفتوحة أمامي، كانت عيناي مثبتتين بصورة آلية على كلمات محفورة بأحرف كبيرة في الجدار فوق الباب الرئيسي لسجن "بستر!" "ملجا الشيخوخة". و كنت أقول في نفسي: عجبا! يبدو أن هناك أناسا يشيشون هنا!

و كما يفعل المرء بين اليقظة و النوم، أخذت أقلب هذه الفكرة على كل جوانبها في نفسي الخامدة من الألم، و فجأة، تغير المنظر الذي كنت أراه من خلال تلك الطاقة الصغيرة في اللحظة التي انتقلت فيها العربية من الشارع العريض إلى الطريق الرئيسي، و أخذت أبراج كنيسة "نوتردام" تبدو لعيوني باهته زرقاء في ضباب باريس من خلال ذلك المنفذ الضيق، فتغيرت كذلك وجهة نظري على الفور. ذلك أنني كنت قد أصبحت آلة مثل هذه العربية. و أعقبت فكرة سجن "بستر" فكرة أبراج "نوتردام"، فقللت في نفسي و أنا أبسم في غباء: إن الذين يكونون في أعلى البروج حيث يوجد العلم سوف يرون مرور العربية على صورة أوضح

و أظن أن القسيس قد استأنف حديثه معي في تلك اللحظة بالذات، فتركته يتكلم و أنا أستمع إليه في صبر، إذ كان يطن في أذني هدير عجلات العربة، مختلطًا بوقع سنابك الخيل، و فرقة السوط و كان هذا الصوت الأخير صوتا إضافيا

و جلست أنصت في صمت إلى وقع هذا الكلام الذي كان يطرق أذني على وتيرة واحدة، كأنه خرير ماء النافورة، فقد كان كلامه يزيد خواطري خمولا على خمول، و تمر ألفاظه من أمامي متنوعة دانما و لكنها دانما نفس الشيء، شأنها شأن الأشجار المرصوصة على جنبي الطريق العريض، عندما هزني فجأة صوت "المحضر" الموجز المتقطع - و كان جالسا في المقدمة - إذ جاءني يقول في لهجة تکاد تفيض مرحًا: "حسنا يا سيدى القسيس! ما هو الجديد الذي تعرفه؟"

و كان الرجل و هو يقول ذلك ملتفقا نحو القسيس، فلم يرد عليه هذا الأخير، إذ كان يتحدث إلى دون انقطاع، و كان صوت العربية يصم أذنيه عن السماع. فاستطرد "المحضر" قائلًا و هو يرفع عقيرته في هذه المرة، كي يعلو صوته على هدير العجلات: "حقا إنها عربة جهنمية!" و سكت لحظة قصيرة ثم أردف يقول: "إنها "المطبات" دون شك، هي التي تجعل أحدهنا لا يسمع الآخر. ماذا كنت أريد أن أقول؟ اه! نعم، قل لي يا سيدى القسيس لو تفضلت .. هل تعرف الخبر الجديد في باريس اليوم؟"

فانتفضت كما لو كان الرجل يتحدث عنى، بينما أجابه القسيس قائلًا بعد أن سمعه أخيرا:

- كلا، لم أجد متسعا من الوقت لقراءة صحف الصباح، و سوف أرى ذلك في المساء. إننى حينما أكون مشغولا هكذا طول اليوم، أوصي البواب بأن يحتفظ لي بالصحف حتى أقرأها عند عودتى في المساء

- أوه! من المستحيل أنك لا تعرف خبر باريس! خبر هذا الصباح!

و هنا تدخلت في الحديث قائلًا:

- أحسب أنى أعرف هذا الخبر

فنظر إلى المحضر ثم قال:

- أنت! أحقا؟ إذن فما هو رأيك؟

فقلت له:

- إنك محب للاستطلاع!

فأجابني الرجل بقوله:

- لماذا يا سيد؟ إن لكل منا رأيه السياسي، و أنا أحترمك إلى حد أنني أعتقد أن ليس لك رأي في هذا الموضوع. أما أنا فإني موافق تماما على إعادة تكوين الحرس الوطني. لقد كنت جاويش سريتي و كان ذلك حقا شيئاً طيفاً للغاية ..

ففاطعنه قائلاً:

- كنت أظن أنك لا تعني هذا الخبر

- وأي خبر لديك إذن؟ لقد كنت تقول أنك تعرف الخبر

- كنت أتحدث عن خبر آخر تهتم به باريس كذلك

و لم يفهم الغبي، غير أن حبه للاستطلاع تيقظ، فقال في لهفة:

- خبر جديد؟ و أنى لك أن تعرف هذه الأخبار بحق الشيطان؟ ما هو هذا الخبر الذي لديك إذن يا سيد العزيز؟ أتعرف هذا الخبر يا سيد القسيس؟ هل أنت أكثر مني دراية بهذه الأخبار؟ أتبئوني بهذا الخبر من فضلكم. ما الذي حدث؟ ألا تفهمونني؟ إنى أحب الأخبار لأنى أقصها على السيد رئيس المحكمة فهذا يسليه كثيرا

و أخذ المحضر يهدى بمنات من مثل هذا الهذيان و هو يلتفت نحو القسيس تارة و إلى تارة أخرى، فكانت لا أرد عليه إلا بهزة من كتفي، فقال لي آخر الأمر:

- حسنا! فيم تفكر إذن؟

- أفك في إنى لن أفك بعد هذا المساء!

- آه! أ هو كذلك؟ .. هيا! إنك حزين أكثر مما ينبغي! لقد كان السيد كاستانج<sup>10</sup> يتحدث رغم محنته و سكت الرجل لحظة ثم أضاف يقول: "لقد رافقت كذلك .. السيد "بابا فوان"<sup>11</sup>، وكان يرتدي قبعته الفاخرة و يدخن سيجارا، أما فتیان مدينة "لاروشيل"<sup>12</sup> فقد كانوا لا يتحدثون إلا فيما بينهم و لكنهم كانوا يتحدثون على آية حال

و صمت المحضر لحظة أخرى ثم عاد يقول: إنهم كانوا مجانيين! كانوا متّحمسين للغاية! و كان يبدو عليهم أنهم يحتقرن كل الناس. أما أنت أيها الشاب فإني أجده مفكرا حقا  
فقلت له:

- أنا شاب؟ .. إني أكبرك في السن؟ إن كل ربع ساعة يمر يجعلني أشيخ بمقدار سنة!

و التفت "المحضر" نحوه و نظر إلى في دهشة تتطوى على الغباء لبعض دقائق ثم شرع يضحك ضحكا ثقيلا و هو يقول:

- أوه! عجبا! أ تريد أن تمزح؟ أنت أكبر مني سنا و قد أكون في سن جدك!

فأجبته قائلا في جد و رزانة:

- إني لا أرغب في المزاح

و فتح الرجل علبة طباق كانت معه و هو يقول:

- خذ هذه يا سيد العزيز و لا تغضب. خذ مضغة من الطباق و لا تحفظ لي في نفسك بأية موجودة على

- لا تخشى شيئا فلن يتسع الوقت أمامي للغضب عليك و في تلك اللحظة، ارتطمت علبة الطباق بالقضبان التي كانت بيني و بينه في عنف، من

<sup>10</sup> مذنب سبقت الإشارة إليه في الفصل الثاني و هو مجنون رهيب أعدم لأنه نس السم لصديق له كان يتولى علاجه

<sup>11</sup> مجنون رهيب كان يقتل الأطفال بضربة من سكين في رؤوسهم. ورد ذكره في نفس الفصل

<sup>12</sup> ضبط صفات أئمة أحد هم يدعى "بوريس" وقد أشرنا إليهم

جراء أحد "المطبات" فسقطت مفتوحة من يده تحت قدمي الجندي فصاح  
"المحضر" قائلاً:

- يا لهذه القضبان اللعينة!

ثم التفت إلي و هو يقول: "حسنا! ألسنت شقيا؟ هأنذا قد فقدت كل ما معى  
من طباق!"

فأجبته قائلاً و أنا أبتسم ابتسامة شاحبة:

- إني أفقد أكثر مما تفقد أنت

و حاول الرجل أن يجمع طباقه و هو يتمتم قائلاً من بين أسنانه:

- أكثر مما أفقد؟ هذا كلام يسهل قوله! سوف أبقى بغير طباق حتى نبلغ  
باريس! إن هذا شيء رهيب!

و واساه الوعاظ في تلك اللحظة ببعض كلمات العزاء. و لست أدرى ما إذا  
كنت مفكراً مهماً، و لكن بدا لي أن كلمات القسيس كان يتابع بها الوعاظ  
الذى كان قد وجه إلى بدايته، و رويداً رويداً سار الحديث بين القسيس و  
"المحضر"، فتركتهما يتحثان معاً و انصرفت إلى خواطري

و لا شك في أنى كنت لا أزال مستغرقاً في التفكير حينما اقتربنا تماماً من  
أبواب باريس، و لكن خيل إلى أن ضوضاء المدينة صارت أكثر من  
المأثور. و توقفت العربية لحظة أمام "كشك" الجمارك حيث قام بتقفيتها  
موظفو جمرك البلدية و لو أن العربية كانت تحمل خروفاً أو ثوراً يساق  
إلى المذبح لوجب أن تدفع من أجله مبلغاً من المال، غير أن الرأس  
البشري لا تدفع عنه رسوم جمركية، فمررنا

و اجترنا الضواحي ثم دخلت العربية مسرعة في تلك الشوارع العتيقة  
المعقدة في حي "سان مارسو" و حي "لاسيتي" التي تتلوى و تتقاطع  
كأنها آلاف الطرق في مدينة النمل، و كان ضجيج العربية قد أصبح فوق  
"بلاطها" عالياً متتابعاً إلى حد أننى لم أعد أسمع أي شيء آخر. و كنت  
كلما أقيمت نظرة من خلال الطاقة الصغيرة المربعة، بدا لي أن أمواجاً من  
المارة كانت تتوقف لتنظر إلى العربية المنكودة و أن شرادم من الصبية

كانت تعدو وراءها، كما بدا لي أنني كنت أرى هنا و هناك، من حين لآخر، عند مفارق الطريق رجلاً أو امرأة عجوزاً في ثياب مهلهلة - و أحياناً كليهما معاً - و هما يمسكان في أيديهما بربطة من الورق المطبوع<sup>13</sup> كان المارة يتخطفونه، و يفتحان فميهمَا كأنهما يصيحان صياحاً عالياً و كانت الساعة تدق معلنة الثامنة و النصف في بناء المحكمة لحظة وصولنا إلى فناء سجن "لاكونسيير جوري". إن منظر هذا السلم الكبير، و تلك الكنيسة الصغيرة السوداء و نوافذ "زنزانات" السجناء الكئيبة قد أرسل في بدني برودة الثلج، و بدا لي في اللحظة التي وقفت العربية فيها أخيراً أن ضربات قلبي على وشك أن تتوقف كذلك و استجمعت أطراف قواي الواهنة حينما فتح باب العربية في مثل و ميض البرق، و قفزت خارج هذه الزنزانة المتحركة و تقدمت في خطوات واسعة تحت قبة السجن بين صفين من الجنود. آه! ها هو ذا الجمهور قد تجمع سريعاً في طريقى

### الفصل 23

و كنتأشعر بأنني أكاد أكون حراً و على سجيتي طيلة اللحظات التي اجتررت فيها دهاليز دار القضاء، و لكن عزمي قد تخلى عنِّي عندما فتحوا أمامي أبواباً منخفضة و ممرات داخلية و سلام سرية، و دهاليز أخرى طويلة مخنوقة و مكتومة لا يطرقها إلا الذين يصدرون الأحكام أو تصدر عليهم الأحكام

و كان "المحضر" في رفقي على الدوام، أما القيسис فكان قد تركني ليعود بعد ساعتين. إن الرجل كانت لديه مشاغله وقادوني إلى مكتب المدير حيث أسلمني المحضر إليه "يداً بيده". لقد كان هناك تبادل، إذ رجاه المدير أن ينتظر لحظة قائلًا له أن لديه صدداً سيكون معداً للتسليم على الفور كي ينقله مباشرة إلى سجن "ببستر" في نفس

<sup>13</sup> سبقت الإشارة إلى أن أحكام الإعدام وأوقات تنفيذها كانت تطبع على أوراق تباع الواحدة منها لقاء جزء من المليم وصفه المزلف في موضع سابق بأنه "صلادي" ملطخ بالدم

العربة. فقلت لنفسي أن هذا الصيد هو دون شك ذلك المحكوم عليه الذي يجب أن ينام الليلة على حزمة القش التي لم يتسع الوقت أمامي لاستهلكها فقال "المحضر" للمدير: "حسنا، سوف أنتظر لحظة، و سنقوم بعمل المحضرين<sup>14</sup> معا إن كان هذا ييسر الأمور و في انتظار ذلك، وضعوني في مكتب صغير ملاصق لمكتب المدير، حيث تركت وحدي و أوصدت الأبواب علي في إحكام و لست أدرى فيما كنت أفكرا و لا كم من الوقت مضى علي هناك، عندما طرقت أذني ضحكة عنيفة مفاجئة أيقظتني من حلمي. فرفعت عيني و أنا أرتجف، فعرفت أنني لم أعد وحدي في هذه الزنزانة، إذ كان معي رجل في نحو الخامسة والخمسين من عمره، متوسط القامة، محدودب الظهر، أشيب الرأس بعض الشيء، و وجهه حافل بالتجاعيد. و كانت أعضاء الرجل قوية عريضة، أما عيناه فرماديتا اللون، بهما حور بسيط، و تعلو شفتيه ابتسامة مرأة. و كانت هيئته تبعث على الاشمئاز، بقدارته و ثيابه المهدلة التي لا تكاد تستر إلا نصف جسمه و يبدو أن الباب كان قد فتح ليزوج بهذا الرجل إلى داخل هذه الزنزانة الصغيرة ثم أغلق مرة ثانية دون أن أفطن إلى ذلك.

آه لو كان الموت يأتي هكذا!

و أمعن كل واحد منا النظر إلى وجه الآخر لعدة ثوان و هو يمد في ضحكته التي كانت كحشحة المحضر، و أنا نهبه لمزيج من الدهشة و الذعر

فقلت له أخيرا:

- من أنت؟

فأجابني الرجل قائلا:

- هذا سؤال عجيب .. أنا واحد منهم!

فأعادت عبارته متسلالا في دهشة:

<sup>14</sup> يعني محضر التسليم و التسلم

- واحد منهم! ما معنى هذا الكلام؟  
و لاحظت أن هذا السؤال قد ضاعف مرحه  
فصاح قائلاً و هو يضحك في قهقهة مدوية:  
- معناه أن السكين ستلعب برأسني بعد ستة أسابيع كما ستداعب رأسك  
بعد ست ساعات .. ها! ها! يبدو أنك قد فهمت الآن!  
و الواقع أني شعرت في تلك اللحظة بأن الدماء تفيض من وجهي و بأن  
شعري يقف في رأسي. لقد كان هذا الرجل هو خليقتي في سجن "بيستر"  
الذي كانوا ينتظرونـه هناك، كان هو الرجل الذي صدر عليه اليوم حكم  
بالإعدام

و صمت الرجل لحظة قصيرة ثم تابع حديثه فقال:  
- ماذا ترید؟ هذه هي قصتي، قصتي أنا، إبني ابن لرجل بانس أتعـب  
"شارلو"<sup>15</sup> نفسه ذات يوم للأسف في ربط الحبل حول عنقه، و كان ذلك  
في عهد المـشـنـقة و الحـمـدـللـهـ، فـلمـ أـكـدـ أـبـلـغـ السـادـسـةـ منـ عمرـيـ حـتـىـ وـجـدـتـ  
نـفـسـيـ بـلـأـبـ وـلـأـمـ. وـ كـنـتـ فـيـ الصـيفـ اـتـمـرـغـ فـيـ التـرـابـ عـلـىـ قـارـعـةـ  
الطـرـيقـ كـيـ يـلـقـيـ إـلـيـ بـعـضـهـمـ "صلـديـاـ"ـ مـنـ خـلـالـ أـبـوـابـ العـربـاتـ. أـمـاـ فـيـ  
الـشـتـاءـ فـكـنـتـ أـسـيـرـ حـافـيـ الـقـدـمـيـنـ فـيـ الـوـحـلـ وـ أـنـفـخـ فـيـ يـدـيـ الـمـحـمـرـتـيـنـ  
مـنـ شـدـةـ الـبـرـدـ، وـ كـانـتـ فـخـدـايـ تـطـلـانـ مـنـ خـلـالـ سـرـوـالـيـ

وـ بـدـأـتـ أـسـتـعـمـلـ يـدـيـ فـيـ سـنـ النـاسـعـةـ، فـكـنـتـ مـنـ حـيـنـ لـأـخـرـ أـنـشـلـ جـيـبـاـ أوـ  
أـسـرـقـ مـعـطـفـاـ. وـ فـيـ سـنـ الـعـاـشـرـةـ كـنـتـ "نشـالـاـ"، وـ مـاـ إـنـ بـلـغـتـ السـابـعـةـ  
عـشـرـةـ حـتـىـ صـرـتـ لـصـاـ، فـكـنـتـ أـحـطـمـ أـقـفـالـ الـحـوـانـيـتـ وـ أـسـتـعـمـلـ مـفـاتـيـحـ  
مـقـلـدةـ. ثـمـ قـبـضـ عـلـيـ بـعـدـ أـنـ بـلـغـتـ سـنـ الرـشـدـ حـسـبـ نـصـ الـقـانـونـ فـأـرـسـلـونـيـ  
إـلـىـ الـأـشـغالـ الشـاقـةـ لـلـتـجـدـيفـ عـلـىـ ظـهـرـ السـفـنـ. إـنـ الـلـيـمـانـ شـيـءـ شـاقـ،  
فـالـمـرـءـ يـنـاـمـ فـيـهـ عـلـىـ لـوـحـ مـنـ خـشـبـ، وـ يـشـرـبـ مـاءـ صـرـفـاـ، وـ يـأـكـلـ خـبـزـاـ  
أـسـوـدـ، وـ يـجـرـ وـرـاءـ كـتـلـةـ سـخـيـفـةـ مـنـ الـحـدـيدـ لـاـ فـانـدـةـ مـنـهـاـ، وـ يـتـلـقـيـ مـاـ تـيـسـرـ  
مـنـ ضـرـبـاتـ الـعـصـيـ وـ ضـرـبـاتـ الـشـمـسـ. وـ إـلـىـ جـانـبـ هـذـاـ فـانـهـمـ يـقـصـونـ

<sup>15</sup> لفـظـةـ مـنـ النـفـظـاتـ الـمـسـتـعـمـلـةـ فـيـ لـغـةـ السـجـونـ وـ يـقـصـدـ بـهـاـ الـجـلـادـ (كـمـاـ يـقـالـ عـنـنـاـ "عـشـماـوىـ")

له شعره، و أنا الذي كان لي شعر كستنائي جميل! و على كل حال، فهذا لا  
يهم!

و قضيت مدة العقوبة: خمسة عشر عاما انتزعت من عمري انتزاعا! و  
كنت في الثانية و الثلاثين عندما أطعوني ذات صباح أمرا بالإفراج عن  
من اليمان، مع سبعين فرنكا جمعتها لنفسي خلال خمسة عشر عاما من  
الأشغال الشاقة، كنت أعمل خلالها ست عشرة ساعة في اليوم، و ثلاثين  
يوما في الشهر، و اثنى عشر شهرا في السنة. و كان هذا سواء لدى، فقد  
كنت أريد بهذه السبعين فرنكا أن أصبح رجلا شريفا، و كنت أنطوي تحت  
أسمالي البالية على مشاعر أكثر مما يوجد منها تحت ملابس قسيس، و  
لكن .. فلتبارك الشياطين في صحيفة السوابق! لقد كانت وثيقة الإفراج  
عبارة عن ورقة صفراء مكتوب عليها: " .. أفرج عنه من اليمان" ، و  
كان لزاما علي أن أبرز هذه الورقة حيثما ذهبت، و أن أقدمها كل ثمانية  
أيام إلى عدة القرية التي كانوا يرغمونني على الإقامة فيها. يا لها من  
تزركي جميلة!<sup>16</sup> لقد كان الناس يخافون مني، و كان الصبيان يفرون عندما  
يرونني، و كانت الأبواب توصد في وجهي إذا مررت! و لم يشا أحد أن  
يعطيني عملا، فأنفقت السبعين فرنكا على طعامي، ثم كان علي أن أعيش،  
فلبديت ساعدي المفتولين هنا و هناك، ساعدي اللذين يصلحان تماما  
للعمل، و مع ذلك فقد أفلتت في وجهي كل الأبواب. و عرضت أن أعمل  
اليوم بأكمله لقاء خمسة عشر ملি�ما، ثم بعشرة ملليمات، و أخيرا بخمسة! و  
لكن دون جدوى، فماذا أفعل؟

و شعرت ذات يوم بجوع شديد، فكسرت بمرفقى زجاجا في واجهة  
حانوت خباز و خطفت رغيفا، و استطاع الخباز أن يمسك بتلابيبى، فلم  
أتتمكن من أكل الرغيف، و حكم علي بالأشغال الشاقة مدى الحياة في  
التجديف على المراكب، و ختموا كتفي بثلاثة أحرف من نار، و سوف

<sup>16</sup> يقصد التزركي المسجلة في وثيقة الإفراج عنه إذ جاء بها: "أفرج عنه من اليمان حيث كان محكما عليه بالأشغال الشاقة بالتجديف فوق ظهر المراكب...".

أريك هذا إن أردت. إنهم يسمون هذا النوع من العدالة: "عائدا إلى الإجرام!"

ها أنا ذا قد عدت إلى الليمان، وقد ألقوا بي في هذه المرة في ليمان "طоловون"، ووضعوني مع المجرمين العائدين إلى الإجرام. و كان لزاما على أن أهرب، و لتحقيق ذلك لم يكن أمامي إلا أن أنقذ ثلاثة جدران، وأن أقطع سلسلتين، و كان معي مسمار في هذه المرة و استطعت أن أهرب ذات يوم فأطلقوا مدافع الإنذار. ذلك أننا عشر العائدين مثل كرادلة روما، ملابسنا حمراء، و تطلق لنا المدفع عند الرحيل. لقد أطلقوا مدافعينا جزاها و بلا نتيجة. و كنت في هذه المرة حرا بلا ورقة صفراء، و لكن لم تكن لدى نقود كذلك

و قابلت رفقاء كانوا قد قضوا مدة العقوبة أو فروا من السجن، فعرض علي رئيسهم أن أكون واحدا منهم، و كانوا قطاع طرق يغتالون الناس. فوافقت و أخذت أقتل لأعيش، و كنا تارة نهاجم عربة نقل الركاب أو البريد، و أخرى نهاجم مسافرا يسير بمفرده، و ثالثة نهاجم تاجر ثيران يمتلك جوادا، فكنا نسلب النقود و نترك الدابة أو العربة تهيم كيما اتفق، أما الرجل فكنا ندفعه تحت شجرة، و نحرص على ألا تبرز قدماه، ثم نرقص بعد ذلك فوق الحفرة التي دفناه فيها، حتى لا تبدو الأرض كأنها نبشت حدثا

و هكذا شخت و أنا مختبئ في الأحراش، أنا و أنا التحف السماء و أطارد من غابة إلى غابة، غير أنني كنت حرا و ملكا لنفسي على الأقل. إن لكل شيء نهاية، و هي نهاية لا تختلف عن سواها و أطبق علينا الدرك ذات ليلة، فهرب زملاني، و لكنني وقعت - و أنا أكبرهم سنا - في مخالب هذه القطة التي ترتدي قبعات موشاة بالأشرطة، فساقوني إلى هنا!

و كنت قد تدرجت في كل درجات السجون عدا هذه الدرجة، فسواء سرقت منديلا أو قتلت نفسا، فإن الأمر يستوي من الآن فصاعدا بالنسبة إلى، فقد

كانت هناك العودة الثالثة إلى الإجرام، التي طبقت عقوبتها على في هذه المرة، ولم يعد أمامي إلا أن أمر بالمقصلة!

لم تستغرق قضيتي وقتا طويلا، إذ أني بدأت أشيخ حقا و لم أعد أصلاح لأي شيء! إن والدي قد مات شنقا و أنا سوف أموت بالمقصلة. تلك هي قصتي أيها الزميل!"

و كنت قد مكثت طول الوقت مشدوها و أنا أصغي إليه، ثم عاد الرجل إلى الضحك بصوت أعلى مما كان يفعل في البداية، و هم بأن يصافحني فترجعت مذعورا إلى الوراء!

فقال الرجل عنده:

- يبدو عليك أنك شجاع أيها الصديق، فلا تكن جبانا أمام الموت. أتفهمني؟ إنها لحظة سيئة ستقضيها في ساحة الإعدام، و لكنها ستنتهي بسرعة! لشد ما أريد أن أكون هناك لأريك كيف يسقط الجسد! لست أرغم بحق السماء في استئناف الحكم إن أرادوا أن يعدمني معك اليوم. إن نفس القسيس سيتولى أمرنا معا، و لا يهمني أن أحصل على مخلفاتك. هأنذا ترى أنتي ولد طيب، أليس كذلك؟ قل لي إذن، ألا ترغب في صداقتي؟

و خطأ إلى الأمام خطوة ليقترب مني، فقلت له و أنا أدفعه بعيدا:

- شكرا لك يا سيد

و ما إن سمع الرجل إجابتي هذه، حتى انفجر ضاحكا من جديد ثم قال:

- سيدتي .. آه! آه! إنك ماركيز! إنك لماركيز!

فقططعنه قائلا:

- يا صديقي! إني بحاجة إلى أن أخلو إلى نفسي، فدعني و شأني و دفعته جدية كلامي إلى التفكير فجأة، فهز رأسه الرمادي الذي يكاد يكون أصلع، ثم حك بأظافره في صدره ذي الشعر الكث الذي كان يبدو من خلال قميصه المفتوح و تتمم قائلا من بين أسنانه:

- لقد فهمت. إنك تفك في القسيس!

و بعد بضع دقائق من الصمت استطرد يقول، و قد شاعت في نبرات صوته رنة خجل:

- أنت ماركيز و هذا حسن جدا، و لكن لديك هنا "ردنجوتا" جميلا لن ينفعك في شيء! و سوف يأخذه السجن منك، فأعطيه إيه فسوف أبيعه لأحصل على طباق

فخلعت "الردنجوت" الذي كنت أرتديه، و أعطيته إيه، فأخذ يصفق بيده في مرح، كأنه طفل صغير، و لكنه حين رأى أنني كنت أرتعد في قميصي قال لي: "إنك ترتجف يا سيدى من البرد، خذ هذه و البسها فالمطر يتسلط و سوف تبتل، ثم إنه يلزمك أن تكون أكثر وقارا و أنت فوق العربية" قال هذا و هو يخلع سترته الخشنة المصنوعة من الصوف الرمادي، ثم وضعها على كتفي و أدخل ذراعي في كميهما، فتركته يفعل ذلك دون اعتراض أو مقاومة

و ذهبت عندي لأتكي على الجدار، و لن أستطيع أن أصور الأثر الذي تركه هذا الرجل في نفسي، و كان قد أخذ يفحص "الردنجوت" الذي أعطيته إيه، و تصدر عنه من لحظة إلى أخرى صيحات تدل على السرور، ثم أضاف يقول: "إن جيوبه جديدة تماما! و الياقة ليست بالية! سوف أحصل في مقابلة على خمسة عشر فرنكا على الأقل .. يا للسعادة!

سيكون لدى طباق طيلة الأسبوع الستة الباقيه لي على قيد الحياة!"

و فتح الباب مرة أخرى. لقد جاءوا لأخذنا نحن الاثنين: أنا إلى الغرفة التي ينتظر فيها المحكوم عليهم بالإعدام ساعة التنفيذ، و هو إلى سجن "بيستر". و وقف الرجل بين الجنود الذين كان عليهم أن يرافقوه، و هو يقول لهم: "آه! يا هؤلاء .. لا تخلطوا بيننا، فقد تبادلنا ملابسنا أنا و هذا السيد. لا تأخذوني بدلا منه، يا للشيطان! إن هذا لم يعد يروق لي الآن و قد أصبح معي ما أستطيع به أن أحصل على الطباق!"

الفصل 24

لقد أخذ مني هذا اللص العجوز "الردنجوت" لأنني لم أهبه إليه في الحقيقة، ثم إنه ترك لي سترته الكثيبة، هذه الخرقـة البالية، فكيف ستكون هيـتي إذن؟

إبني لم أتركه يأخذ مني "الردنجوت" عن عدم اكتـرات أو بداعـي العـطف عليهـ، كـلاـ، و لكن لأنـه كانـ أكثرـ منـي قـوةـ، و لوـ أـنـي رـفـضـتـ ما طـلبـ لـضرـبـنـيـ بـقبـضةـ يـدـهـ الضـخـمةـ

آهـ! حـسـناـ! نـعـمـ، إـنـهـ الإـحـسانـ! لـقـدـ كـنـتـ ساعـتهاـ أـفـيـضـ بـالـمـشـاعـرـ السـيـنةـ، وـ كـنـتـ أـتـوـقـ لـأـنـ أـخـنـقـ هـذـاـ لـلـصـ العـجـوزـ بـيـديـ، أوـ أـنـ أـسـحـقـهـ سـحـقاـ تـحـتـ قـدـميـ!

إـنـيـ لـأـشـعـرـ بـقـلـبـيـ يـطـفـحـ بـالـغـضـبـ وـ المـرـارـةـ، وـ أـحـسـبـ أـنـ مـرـارـتـيـ قدـ انـفـجـرـتـ! حـقاـ إنـ الـمـوـتـ يـجـعـلـ إـلـيـانـ شـرـيرـاـ غـلـيـظـ القـلـبـ

## الفصل 25

وـ قـادـونـيـ إـلـىـ زـنـزـانـةـ لـيـسـ فـيـهاـ إـلـاـ جـدـرانـ أـرـبـعـةـ، بـنـافـذـتـهـاـ قـضـبـانـ كـثـيرـةـ منـ حـدـيدـ وـ بـبـابـهـاـ عـدـدـ كـبـيرـ منـ المـزـالـيجـ وـ الـأـقـالـ وـ هـذـاـ أـمـرـ طـبـيعـيـ فـطـلـبـتـ مـنـضـدـةـ وـ مـقـعـداـ وـ أـدـوـاتـ لـلـكـتابـةـ، فـأـحـضـرـوـاـ لـيـ ماـ طـلـبـتـ. ثـمـ طـلـبـتـ فـرـاشـاـ فـحـدـجـنـيـ السـجـانـ بـنـظـرـةـ تـنـطـلـ مـنـهـاـ الـدـهـشـةـ وـ كـانـهـ يـقـولـ لـيـ: "وـ مـاـ جـدـوـيـ ذـلـكـ؟"

وـ مـعـ ذـلـكـ، فـقـدـ نـصـبـوـاـ لـيـ سـرـيرـاـ حـقـيرـاـ فـيـ رـكـنـ الزـنـزـانـةـ، وـ لـكـنـ جـاءـ فـيـ نـفـسـ الـوـقـتـ حـارـسـ لـيـجـلـسـ مـعـيـ فـيـمـاـ كـانـوـاـ يـسـمـونـهـ "غـرـفـتـيـ"! تـرـىـ هـلـ يـخـافـونـ أـنـ أـخـنـقـ نـفـسـيـ بـالـفـرـاشـ؟

## الفصل 26

### الساعة الأن العاشرة

آهـ ياـ اـبـنـتـيـ الـمـسـكـينـةـ! سـوـفـ أـمـوـتـ بـعـدـ سـتـ سـاعـاتـ! وـ سـوـفـ أـكـونـ شـيـئـاـ قـذـراـ يـلـقـىـ بـهـ عـلـىـ مـنـاضـدـ مـدـرـجـاتـ كـلـيـةـ الطـبـ! وـ سـوـفـ يـشـرـحـ الرـأـسـ فـيـ جـهـةـ وـ الجـذـعـ فـيـ جـهـةـ أـخـرـىـ، ثـمـ يـلـقـىـ بـمـاـ تـبـقـىـ مـنـيـ فـيـ صـنـدـوقـ بـمـقـبـرـةـ "كـلـامـارـ"

هذا هو يا ابنتي ما سيفعله بأبيك هؤلاء الرجال الذين لا يكرهني أحد منهم، و الذين يرثون لحالى جمِيعاً، و الذين يستطيعون جمِيعاً إنقاذه. إنهم سيقتلونني في الحال، فهل تفهمين هذا يا "ماري"؟ سيقتلونني بكل بروءة، و في حفل رسمي لمصلحة المجتمع! آه! يا إلهي العظيم!

مسكينة أنت يا صغيرتي! إن والدك الذي كان يحبك حباً لا مزيد عليه، والدك الذي كان يقبل رقبتك الصغيرة المعطرة، و لا تكفي يده عن مداعبة خصلات شعرك الحريري، و الذي كان يأخذ وجهك الجميل المستدير في يده، و كان يطيب له أن تقفزى على ركبتيه، و الذي كان يجعلك في المساء تضمين يديك لتصلى الله!

من ذا الذي سيفعل لك كل هذا يا "ماري" بعد الآن؟ من ذا الذي سيحبك؟ إن كافة الأطفال في سنك سيكون لهم آباء إلا أنت يا ماري. كيف تفقدين يا ابنتي عيد رأس السنة، و الهدايا و اللعب الجميلة، و الحلوى و القبلات؟ كيف تفقدين أيتها اليتيمة البائسة عادة الأكل و الشرب؟ آه لو كان هؤلاء المخلفون قد رأوها على الأقل، ابنتي "ماري" هذه الصغيرة الجميلة! إذن لفهموا أنه يجب ألا يقتل أب لطفلة عمرها ثلاثة أعوام!

و عندما تكبر ابنتي، إذا قدر لها أن تكبر، فماذا عسى أن يكون مصيرها؟ إن أباها سيصبح ذكرى من ذكريات أهل باريس! لسوف تحمر خجلاً مني و من اسمى! إنها ستكون محترفة، ينأى عنها الناس بجنوبهم، و حقيرة وضعية بسيبى أنا، أنا الذي أحبها بكل ما في قلبي من حنان. آه يا "ماري" يا طفلي الصغيرة المحبوبة! أحقاً أنك ستخلين مني و تشعرين نحوبي بالاشمئزاز؟

أنا .. يالي من يائس! و يا للجريمة التي اقترفتها، و يا للجريمة التي أتسبب في أن يقترفها المجتمع!

آه! أصحيح حقاً أنني سأموت قبل نهاية هذا اليوم؟ أحقاً أنني أنا هذا الرجل؟ هذا الصوت المكتوم الصادر عن الصياغ الذي أسمعه في

الخارج، و هذا السبيل المرح من الجماهير التي تسرع على ارصفة نهر "السين"، و هؤلاء الجنود الذين يستعدون في ثكناتهم، و هذا القسيس بثيابه السوداء، و هذا الرجل الآخر ذو البدين الحمراوين، هؤلاء جميعا هل هم من أجلي؟ من أجلي أنا الذي سأموت! أنا نفسي الذي استقر هنا حيا و أتحرك و أتنفس، و أجلس أمام هذه المنضدة التي تشبه أية منضدة أخرى، و يمكن أن تكون كذلك في أي مكان آخر! أنا كذلك، هذا الشخص الذي ألمسه و أشعر به، و الذي ثيابه هذه طياتها!؟

### الفصل 27

آه لو كنت أعلم كذلك كيف صنعت هذه المنضدة و كيف صنع هذا المقعد، و بأية طريقة يموت المرء بهما! لكن هذا شيء رهيب، إنني لا أعرفه. إن اسم هذا الشيء يتثير الرعب في النفوس و لست أفهم على الإطلاق كيف استطعت أن أكتب هذه الكلمة و أن أنطق بها

إن تجمع الحروف التي تكون هذه الكلمة و مظهرها و شكلها قد خلقت جميعا لتوهظ فكرة مرعبة، و أن الطبيب المنحوس الذي اخترع هذا الشيء كان اسمه مسطورا في لوحة القدر! إنها صورة غير واضحة و كئيبة للغاية تلك التي ترتبط عندي مع هذه الكلمة المشئومة، و كل حرف من حروفها يبدو لي. كأنه جزء من تلك الآلة الرهيبة التي أظل أهدم و أبني أجزاءها الجهنمية في نفسي دون انقطاع

إنني لا أجرو على السؤال عنها، غير أن من المرعب إلا أعرف ما هي، و لا كيف أتصرف و أنا واقف عليها، و يبدو لي أن بها ما يشبه الأرجوحة، و أنهم يجعلون المحكوم عليه ينام على بطنه. آه! إن شعري سوف يبيض لا محالة قبل أن يسقط رأسي!

### الفصل 28

و مع ذلك فقد لمحتها ذات مرة  
كنت ذات يوم أمر في عربة إلى جوار ساحة الإعدام، و كان ذلك في نحو  
الساعة الحادية عشرة صباحا. و فجأة توقفت العربة عن المسير

و كان هناك جمهور غفير يحيط بالساحة، و أخرجت رأسي من نافذة العربية فرأيت جموعا حاشدة تملأ المكان و تزحف على أرصفة نهر "السين"، و كان الرجال و النساء و الأطفال يقفون فوق سور النهر الحجري، و من فوق الرءوس كان في وسع المرء أن يرى منصة حمراء من الخشب كان يعدها ثلاثة رجال ..

كان ثمة رجل محكوم عليه بالإعدام سوف ينفذ فيه الحكم في نفس اليوم الذي كانوا يعدون فيه الآلة

و أشحت بوجهي قبل أن أرى، و في تلك اللحظة سمعت امرأة كانت تقف إلى جوار العربية تقول لصبي: "عجبًا! أنظر! إن السكين لا تجيد القطع و سوف "يشحمون" المجرى حالا بقطعة من الشمع"

و من المحتمل اليوم أنهم يفعلون ذلك الآن، فقد دقت الساعة الحادية عشرة منذ لحظة، و لا شك في أنهم "يشحمون" المجرى الآن آه! في هذه المرة أيها التّعس لن تستطيع أن تشيح بوجهك!

## الفصل 29

آه! العفو العفو!

قد يصدر عنى العفو، فالملك ليس غاضبا علي. فليذهبوا إذن لاحضار محام. إلي بالمحامي، و بسرعة! إني أقبل الأشغال الشاقة عن طيب خاطر، و التجديف على السفن، أقبل الأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات أو عشرين سنة، بل مدى الحياة، و أقبل معها كي كنفي بالحديد الأحمر المحمي في النار كما يشاءون .. و لكن، ليعتقدوا رقبتي فحسب! إن المحكوم عليه بالأشغال الشاقة لا يزال يمشي، و يروح و يغدو. إنه يرى الشمس!

## الفصل 30 هذا القسيس

و جاء القسيس الواعظ

كان أبيض الشعر، لطيف الشكل للغاية، تبدو على ملامح وجهه علامات الطيبة والاحترام. كان في الواقع رجلاً ممتازاً كريماً، فقد رأيته في هذا الصباح يفرغ ما في جيده في أيدي السجناء، فلماذا لا يوجد في صوته ما يؤثر أو يدل على التأثير؟ كيف يتفق أنه لم يقل لي بعد شيئاً يؤثر في تفكيري أو يمس قلبي؟

لقد كنت تائهاً في هذا الصباح حتى أتيتني لم أكُد أسمع ما قاله لي، و مع ذلك فقد بدت لي كلماته عديمة النفع، و بقيت غير متأثر بها. إنها كانت تنزلق من فمه كما ينزلق هذا المطر البارد على هذا الزجاج المثلج و مع ذلك فقد أراحتني مرأى الرجل بمجرد أن عاد إلى جواري، فهو الذي لا يزال بالنسبة إلى الإنسان الوحيد بين هؤلاء الرجال. لقد قلت هذا في نفسي و قد شعرت بظماً شديد إلى سماع آية كلمة طيبة مواسية و كنا جالسين، هو على المبعد، و أنا على السرير، فقال لي:

- يابني ..

و أحسست في تلك اللحظة بأن كلمته هذه قد فتحت قلبي المغلق، و استمر القسيس في حديثه قائلاً: "أتؤمن بالله يابني؟"

- نعم يا أبي

- و هل تؤمن بالكنيسة الكاثوليكية البابوية الرومانية؟

- نعم في كثير من المرور

و هنا استطرد الرجل يقول:

- يبدو عليك أنك مشكك يابني

ثم أخذ يتكلم فأطال الحديث، و قال كلاماً كثيراً. و لما ظن أخيراً أنه قد انتهى من حديثه، نهض و نظر إلى لأول مرة منذ شرع يتكلم ثم سألني قائلاً:

- حسناً؟

فأكدت له أني قد استمعت إليه، في شغف أولاً، ثم في انتباه ثانياً، ثم في إخلاص ثالثاً

ثم نهضت بدوري و أنا أجبيه قائلاً:

- سيدتي .. أرجوك أن تدعني وحدى

- و متى أعود؟

- سوف أخبرك في الوقت المناسب

فخرج الرجل عندي دون أن يبدو عليه أي أثر للغضب، غير أنه كان يهز رأسه كما لو كان يقول في نفسه: "إنه غير مؤمن!"

كلا .. فمهما انحدرت إلى أسفل الدرك فأنا لست كذلك، و الله شهيد على أنني أؤمن به. ولكن ماذا قال لي هذا الشيخ؟

إنه لم يقل شيئاً أحس به، أو ألمس حنانه علي أو يبكيوني. إنه لم ينزع من روحي شيئاً ولم يخرج من قلبه شيء يصل إلى قلبي، شيء يصدر من القلب إلى القلب، بل على العكس، لقد حدثي عن أشياء أراها غامضة سطحية من الممكن أن تتطبق على كل شيء و على كل إنسان، عن أشياء هي أدنى إلى البلاغة منها إلى التعمق، و سطحية في حين أن الحاجة كانت ماسة إلى البساطة. كان حديثه ضرباً من الوعظ الوجذاني و التمجيد الديني، تتخلله من آن لآخر عبارة لاتينية، أو نص للقديس "أوجستان" أو للقديس "جريجوار" لست أدرى أيهما! ثم إنه كان يبدو عليه أنه يعيد تلاوة درس قد تلاه من قبل عشرين مرة، أو أنه يراجع موضوعاً يستخلصه من ذاكرته لكثره معرفته به، فلا تعبير في نظرة عينيه، و لا حرارة في نبرات صوته، و لا حركة معبرة من يديه

و كيف يمكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك؟ أو ليس هذا القسيس هو الواعظ الرسمي للسجن؟ إن عمله ينحصر في أن يواسى و يعظ، و هو يعيش من عمله هذا. إن السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، و مرضى السجن، هم الذين يتبعونه، و هو الذي يجعلهم يعترفون، و هو الذي يساعدتهم، لأن هذه هي وظيفته التي يؤديها. لقد هرم هذا الرجل و هو

يرافق الآخرين إلى الموت و ألف منذ زمن بعيد ما تشعر له الأبدان إن شعره الأبيض لم يعد يقف فوق رأسه، فالليمان و المشفقة شيئاً يراهما في كل يوم حتى أصبح لا يتأثر كثيراً لمرأها و قد تكون لديه كراسة يخصص صفحة منها للمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، و أخرى للمحكوم عليهم بالإعدام. إنهم يخطرونه في الليلة السابقة بأنه سيكون لديه شخص ليواسيه في وقت كذا، فيسألهم من أي نوع هو؛ أشغال شاقة أم "إعدام"؟ .. ثم يراجع الرجل صفحاته و يحضر درسه، و هكذا يحدث أن هؤلاء الذين يذهبون إلى ليمان "طولون" و أولئك الذين يذهبون إلى ساحة الإعدام، يصبحون جميعاً لديه أفكاراً مطروفة، كما يصبح هو عندهم فكرة مطروفة كذلك

آه! فليذهبوا إذن وللحضوروا لي بدلاً من ذلك واعطا شاباً أو قسيساً شيئاً كيما اتفق من أول "أبرشية" تصادفهم، ولينتزعوه من جلسته و هو إلى جوار ناره يقرأ كتابه و ليقولوا له: "هناك رجل سيموت حالاً، و يجب أن تكون أنت من تواسيه، يجب أن تكون إلى جانبه حين يوثقون بيده، و حين يقصون شعره و أن تركب معه في العربة و معك صليبك كي تحجب عنه منظر الجلاد، و أن تشاشه و عوره الطريق حتى يبلغ ساحة الإعدام، و أن تجتاز معه هذا الجمع الغير المرهون شارب الدماء، و أن تقبله و هو يرقى إلى المقصلة، و أن تظل واقفاً هناك حتى يفصل رأسه عن جسده، و يصبح رأسه هنا و جسمه هناك

فليحضروا إلى إذن هذا القسيس و هو يرتجف، و جسده بأسره يرتعد من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، وليلقوا بي بين ذراعيه و على ركبتيه. لسوف يبكي عندئذ ولسوف أبكي معه، سوف يكون فصيحاً بليناً، فأشعر بالمواساة و أسكب ما في قلبي في قلبه، و سوف يملك على زمام نفسي و تنتقل إلى قوة إيمانه

و لكن .. من هو هذا الشيخ الطيب، أين هو مني و أين أنا منه؟ إنني إنسان شقي، و ظل من الظلال التي طالما رأى كثيرا منها، و واحد آخر يضيفه إلى عدد أولئك الذين نفذ فيهم حكم الإعدام!

و قد أكون مخطئاً بإيعاده عنى على هذا النحو، فهو الرجل الصالح و أنا الرجل الطالع، و لكن الذنب ليس ذنبي للأسف! و إنما مرد ذلك لأراني كإنسان محكوم عليه بالموت، فالآراء كثيرة ما تفسد كل شيء و تجعله يذبل!

لقد أحضروا إلي طعاماً منذ لحظة. لقد حسبوا أنني لا بد أن أكون في حاجة إليه. هاهي ذي مائدة رقيقة شهية، عليها دجاجة فيما يبدو، و ألوان أخرى كذلك .. حسناً! لقد حاولت أن أكل، و لكن الطعام سقط من فمي عند أول لقمة تناولتها، و قد بدا لي كريها من المذاق!

### الفصل 31

حضر منذ لحظة رجل قبعته فوق رأسه<sup>17</sup>، فألقى على نظرة عابرة، ثم نصب سلماً من الخشب و أخذ يقياس أحجار الجدار من أسفل إلى أعلى، و هو يتكلم بصوت مرتفع للغاية، ليقول تارة: "إنه كذلك" و ليصبح تارة أخرى: "كلا، ليس كذلك"

و سالت الحراس عنمن يكون هذا الرجل، فقال لي إنه يبدو أنه يعمل كمساعد مهندس في السجن

و من ناحية أخرى، فقد ثار حب الاستطلاع في نفس هذا الموظف من ناحيتي، فقد تبادل كلمات، كلها تلميح مع حامل مفاتيح السجن الذي كان في رفقته، ثم انعم النظر في لحظة، و هو يهز رأسه في غير مبالاة، و استأنف حديثه و هو يتتابع فياس أبعاد الجدار بنفس اللهجة المرتفعة التي كان يتكلم بها من قبل

<sup>17</sup> تفضي التقاليد الغربية بأن يرفع المرء أنفه عن رأسه عندما يدخل على قوم أو يحيي شخصاً ما

و ما إن فرغ الرجل من عمله حتى اقترب مني و هو يقول في صوت جهوري: "يا صديقي العزيز .. سوف يكون هذا السجن بعد ستة أشهر أفضل من هذا بكثير"

و كانت الحركة التي أتى بها و هو يقول ذلك كأنها تقول: "و لكنك للأسف لن تستمتع بهذا التحسين!"

كان الرجل يبسم تقريبا، فخيل إلي وقتئذ أنني كنت أرى اللحظة التي كان يوشك فيها أن يسخر مني برفق كما يمزح الناس مع عروس شابة في ليلة الزفاف

و قد تكفل الجندي الذي كان في حراستي بالرد عليه، و كان حارسا عجوزا قد أبيض شعر رأسه و هو في حراسة السجناء، فقال له: "سيدي لا يرفع المرء صوته هكذا في حجرة ميت!"

و رحل المهندس، أما أنا فبقيت هناك كحجر من الأحجار التي كان يقياس أبعادها!

### الفصل 32

و حدث لي بعد ذلك شيء يبعث على السخرية، فقد جاءوا ليغيروا حارسي العجوز، و أنا أناني و غير معترف بالجميل، فلم أصافحه حتى بلمسة يد، و حل مكانه آخر و كان رجلا ذابل الجبين، تشبه عيناه أعين البقر و وجهه جامد لا تعبر فيه

و لم أكن من ناحيتي قد أعرت ذلك أي انتباه، فقد كنت جالسا إلى المنضدة و ظهري إلى الباب، و أنا أحراول أن أرطب بيدي جبيني الملتهب، و كانت خواطري تثور في نفسي

و أحسست فجأة بضربة خفيفة على كتفي أدرت لها رأسي. كان هذا جندي الحراسة الجديد الذي كنت معه وحدني

و هذه - تقريبا - هي الطريقة التي وجه بها الحديث إلى:

قال لي الرجل:

- هل أنت طيب القلب أيها المجرم؟

- كلاما!

و بدا لي أن سرعة إجابتي قد صدمته، و مع ذلك فقد عاود حديثه قائلاً في تردد:

- إن المرء لا يكون مؤذياً لمجرد الرغبة في الإيذاء

- و لم لا؟ إذا لم يكن لديك سوى هذا الكلام فاتركني وشأني. ما الذي ترمي إليه؟

- عفوا أيها المجرم، لدى كلمتان، كلمتان فحسب، أريد أن أقولهما لك: إذا كنت تستطيع أن تسعد رجلاً مسكيناً دون أن يكلفك ذلك شيئاً فهل تفعل؟ فأجبته قائلاً و أنا أهز كتفي:

- هل أنت قادم يا هذا من مستشفى المجانين؟ إنك تختار إناء غريباً لتسخر من السعادة! أنا؟ .. أنا أسعد شخصاً؟

فخفض الجندي من صوته و بدا عليه كأنه يخفي في نفسه سراً - و إن كان ذلك لا يتفق مع وجهه الذي ينطق بالبغاء - و هو يقول لي:

- نعم أيها المجرم .. نعم، السعادة، و الثروة! إن هذا كله سوف يأتييني منك. هذا هو ما في الأمر. أنا جندي مسكون، و الخدمة ثقيلة، و أجري ضئيل، و لي جواد يخبرني! غير أنني أقامر في أوراق "اليانصيب" كي أوازن حياتي. إن المرء تلزمـه صناعة، و لا ينقضـني حتى الآن كـي أربح في "اليانصيب"، إلا أن أحـصل على الأرقـام الجـيدة، و أنا دائب البحـث عنها في كل مكان. إنـي أبحـث عن أرقـام مضمـونة و لكنـي أقع دائمـاً على أرقـام تجاورـها، أقامـر على الرـقم 76 مثـلاً فيـكبـر الرـقم 77، و مـهما اصـطـنـعت من فـراسـة فـبني لا أـهـتـدـي إـلـى الرـقم الرـابـع .. اـصـبـر قـليـلاً من فـضـلك فـقد أـوشـكـت عـلـى الـانتـهـاء - و لكنـ هذه فـرـصـة طـبـية بـالـنـسـبـة إـلـيـ، إذ يـبـدو لـي - عـفـوا أيـها المـجـرم - أنـكـ ستـعدـمـ الـيـومـ، و منـ المؤـكـدـ أنـ الـأـمـوـاتـ الـذـيـنـ تـزـهـقـ أـرـوـاحـهـمـ عـلـى هـذـا النـحـوـ يـرـوـنـ أـرـقـامـ "اليـانـصـيـبـ"

الـرـابـحـةـ مـقـدـماـ. عـدـنيـ أـنـ تـعـودـ مـسـاءـ غـدـ - وـ لـنـ يـضـيرـكـ هـذـاـ فـيـ شـيءـ - لـتـعـطـيـنـيـ ثـلـاثـةـ أـرـقـامـ، ثـلـاثـةـ أـرـقـامـ رـابـحـةـ أـلـيـسـ كـذـلـكـ؟ـ إـنـيـ لـأـخـافـ الـأـشـبـاحـ

فكن مطمئنا، و إليك عنواني: "ثكنات بوبانكور، سلم رقم 1، عنبر رقم 26 في نهاية الدهليز" و سوف تتعرف على في غير عناء أليس كذلك؟ و يمكنك أن تحضر حتى في هذا المساء إن كان هذا يرود لك و كنت شديد الرغبة في احتقار هذا الأحمق بعدم الرد عليه، لولا أن ثار في نفسي أمل جنوني، ففي مثل الحالة اليائسة التي كنت فيها، يعتقد المرء أحيانا أن في وسعه أن يحطم سلسلة حديدية بشعرة فقلت له و أنا أمثل بقدر ما يستطيع أن يمثل إنسان يوشك أن يموت:

- أصغ إلي .. إنني أستطيع حقا أن أجعلك أغنى من الملك، أن أجعلك تربح الملايين، ولكن بشرط

فتح الرجل عينيه يطل منها الغباء و هو يقول:

- ما هو؟ ما هو؟ سوف أفعل كل شيء لإرضائك أيها المجرم!

- أعدك بأربعة أرقام لا بثلاثة. استبدل ملابسك بملابسي فصاح الحارس و هو يفك الأزرار الأولى في زييه العسكري:

- لو كان الأمر مقصورا على ذلك!

و كنت قد نهضت من مقعدي و أنا أرقب كل حركة من حركاته و قلبي يتنفس في صدرني، و كنت أتخيل الأبواب و هي تفتح أمام زبيي كحارس من حراس السجن، و أتخيل الميدان، و الشارع، ثم دار القضاء من وراء ظهري!

و لكن الرجل التفت إلي و هو يقول في تردد: "آه يا هذا! لا شك في أنك لا تقصد بهذا طبعا إلا أن تخرج من هنا؟"

فادركت عندئذ أن كل شيء قد ضاع، و بذلك مع ذلك جهدا أخيرا لا طائل تحته، جهدا غير منطقي على الإطلاق! فقلت له:

- إنني أقصد هذا حقا، و لكن ثراءك مضمون ...  
فقطعني الجندي قائلا:

- آه! حسنا! كلا، كلا .. عجبا! فلكي تربح أرقامي يجب أن تكون أنت ميتا!

فجلست ثانية في صمت و قد تملكتني يأس لم أشعر بمثله قط من قبل !

## الفصل 33 أيام صبّاً

أغمضت عيني، ووضعت يدي فرقهما، محاولاً أن أنسى الحاضر في الماضي، و بينما أنا أحلم، عادت إلى ذكريات طفولتي و شبابي، واحدة إثر أخرى، عادت هادئة و حلوة ضاحكة كأنها جزر من الزهر على حافة هذه الهوة السحرية من الأفكار السوداء الغامضة التي كانت تغلي في رأسي هاؤذا أرى نفسي مرة أخرى طفلاً و تلميذاً ضاحكاً نضراً، ألعاب و أجري وأصبح مع إخوتي في هذا الممر الكبير الأخضر بتلك الحديقة غير المنسقة، حيث انقضت سنوات حياتي الأولى، و التي كانت في الأصل حديقة للراهبات، تطل عليها تلك القبة الرمادية الضخمة، قبة كنيسة "لوفال دوجراس"

و هاؤذا هناك أيضاً بعد ذلك بأربع سنوات و كنت فتى يافعاً عطوفاً على الدوام. و كانت هناك فتاة شابة في الحديقة المنعزلة. كانت إسبانية صغيرة تدعى "بيبيا"<sup>18</sup> ذات عينين كبيرتين، و شعر أسود طويل، و بشرة سمراء ذهبية، و شفتين قرمزيتين و خدين ورديين. و كانت هذه الأندرسية الجميلة لا تتجاوز الأربعة عشر ربيعاً

و كانت أماناً قد قالتنا لها أن نذهب لنجري معاً: فجئنا للتنزه. لقد قيل لنا أن نلعب و هانحن أولاء نتبادل الحديث، و نحن من سن واحدة، و لكننا لسنا من جنس واحد<sup>19</sup>

و مع ذلك فقد كنا، منذ عام واحد مضى فحسب، نلعب و نتصارع معاً، و كنت أتشاجر مع "بيبيا" على أجمل تفاحة في شجرة التفاح، و كنت أضربها من أجل عش العصافير. إنها كانت تبكي فكنت أقول لها: "حسناً فعلت!" و كنا نذهب لنشكو معاً إلى أمينا اللتين كانتا تقولان بصوت مرتفع إننا كنا مخطئين، ثم تقولان في صوت خفيض إننا على حق

<sup>18</sup> Pepa (اسم التدليل)، و اسمها الأصلي كما ورد في نفس الصفحة Pepita

<sup>19</sup> المقصود هنا أنه ذكر و أنها أنثى

هاهي ذي الآن تتكى على ذراعي و قد غمرني الفخر و تملكتي الانفعال.  
إننا نسير الهويني، و تتحدث بصوت خافت. هاهي ذي تترك منديلها يسقط  
فالتفطه لها. إن أيدينا ترتعش عندما تتلامس. و هي تتحدث إلى عن  
الطيور الصغيرة، و عن النجم الذي نراه هناك، و عن غروب الشمس  
المحمرة من وراء الشجر، أو عن صديقاتها في مدرسة الراهبات، أو عن  
ثوبها و شرائطها الحريرية. إننا كنا نتكلم في أمور بربئه و لكننا كنا نحمر  
منها خجلا .. إن الفتاة الصغيرة قد أصبحت شابة يافعة

و في ذاك المساء بالذات - و كان مساء نيلة من ليالي الصيف - كنا  
جالسين تحت أشجار الكستناء في نهاية الحديقة، و بعد إحدى فترات  
الصمت الطويلة التي كانت تتخلل نزهاتنا، قالت لي "ببيا": "هيا بنا  
نجر!"

إنني لا زلت أراها و هي ترتدي ثيابها السوداء حدادا على وفاة جدتها. لقد  
مرت بخاطرها حينئذ فكرة من أفكار الطفولة ثم عادت "ببيا" لتصبح  
"ببيتا" مرة ثانية

و قالت لي: "هيا بنا نستبق!"

وأخذت تundo أمامي بقامتها الرشيقه، و خصرها الدقيق، و قدميها  
الصغيرتين اللتين كانتا ترفعان ثوبها إلى منتصف ساقيها. و كنت أتبعها و  
هي تهرب أمامي، و كان الهواء الذي يحدثه عدوها يرفع أحيانا قميصها  
الأسود فيتيح لي أن أرى ظهرها الأسمر النضر

و كنت لا أستطيع مغالبة نفسي، فلحقت بها بجانب البئر القديمة المتهدمة،  
و أمسكت بها من حزامها بحق انتشاري عليها في السباق، ثم أجلسها  
على العشب فلم تقاومني، و امتنعت و هي تلهث و تضحك، بينما كنت جادا  
لا أكف عن النظر إلى عينيها الحالمتين من خلال أهدابها الطويلة السوداء  
و قالت لي "ببيا": "اجلس هنا! فالدنيا لا تزال نهارا .. اجلس ولنقرأ شيئا،  
أليس معك كتاب؟"

و كان معه يومئذ الجزء الثاني من كتاب "رحلات سبالازاني"، ففتحته في صفحة ما و اقتربت منها فأسندت كتفها إلى كتفي، و أخذنا نقرأ نفس الصفحة بصوت منخفض، كل واحد منا من ناحيته، فكانت هي تضطر إلى انتظاري قبل أن أقلب الصفحة، فقد كانت روحها أكثر استيعابا من روحي و كانت تقول لي و أنا لم أكمل أنتهت من قراءة السطور الأولى من الصفحة: "هل أنتهيت؟"

و كان رأسانا في خلال ذلك يلتقيان، و كان شعرنا يتتشابه، و أنفاسنا تمتزج رويدا رويدا و فجأة تلاقت شفاهنا!  
و لما أردنا أن نتابع قراءتنا كانت النجوم تملأ السماء .. و قالت "بيبا"  
لوالدتها عندما عادت: "آه! يا أماه! آه! يا أماه! آه! لو كنت تعلمين كم  
جرينا!"

أما أنا فلذت بالصمت

و قالت لي والدتي: "إنك لا تقول شيئا يا بني! يبدو أنك حزين!"  
و لكنني لم أكن حزينا! .. إن الجنة كانت في قلبي! لسوف أذكر هذه  
الأمسية مدى حياتي!  
طول حياتي!!

### الفصل 34

دفت الساعة منذ لحظة تعلن الواحدة، و لست أدرى أية ساعة تلك التي دفت فلم أعد أسمع جيدا دقت هذه الساعة و يبدو لي أن في أذني صوتا كصوت الأرغن .. إنها كانت أفكاري الأخيرة تدويني في أذني:

في هذه اللحظة الحرجة بينما كنت أتأمل ذكرياتي، وجدت جريمتي فيها بشعة للغاية للمرة الثانية، و لكنني أتمنى كذلك أن أندم أكثر من ذي قبل. لقد كنت أكثر ندما مني الآن قبل أن يصدر الحكم علي، و منذ ذلك اليوم، يبدو لي أن ليس هناك مكان في نفسي إلا لأفكار الموت. و مع ذلك، فإنني راغب حقا في أن أندم كثيرا

و عندما حلمت دقيقة و وصلت في حلمي إلى ضربة المقصلة التي يجب أن تضع حدا لحياتي بعد ساعات، اجتاحتني رجمة كأن هذا شيء جديد! يا لطفلتي الجميلة! و يا لشبابي الجميل! إنهم يبدوان لي الآن كفماش موسى بالذهب و أطراوه ملطخة بالدماء، فيبين ذلك العهد و بين الحاضر نهر من الدم، دم الرجل الآخر .. و دمي أنا!

إذا قرأ الناس يوما فصتي هذه بعد كل تلك السنين من البراءة و السعادة، فلن يصدقوا هذا العام البغيض الذي بدأ بجريمة و انتهى بالمقصلة: إنه سيبدو شيئاً يشوه بهجة هذه الحياة و مع ذلك، فيها أيتها القوانين البائسة، و يا أيها الرجال التعساء: إني لم أكن شريراً ولا قاسياً!

آه! الموت بعد بضع ساعات، و أنا أفك في أنني كنت في مثل هذا اليوم حراً طليقاً، و ظاهراً نقياً منذ عام واحد؟ و في أنني كنت أنتزه نزهات الخريف، و أجول كما يروق لي و أسير تحت أوراق الخمائل؟

### الفصل 35

في هذه اللحظة بالذات، هناك إلى جواري، في هذه المنازل التي تحيط بدار القضاء و بساحة الإعدام، كما هو الحال كذلك في كل مكان في باريس، يوجد أناس يروحون و يغدون و يتباذلون الحديث و يضحكون، و يطالعون الصحف و يفكرون في أعمالهم، و تجار يبيعون و فتيات شابات يعدن ثوب السهرة لحفل الليلة الراقص، و أمهات يلعبن مع أطفالهن!!

### الفصل 36

أذكر أنني ذهبت يوماً و أنا صبي لرؤية أبراج كنيسة "نووتردام" و كنت قد أصبحت شارداً بسبب صعود السلم الحلواني المظلم، و عبور الدليل الدقيق الذي يربط بين البرجين، و باريس تحت قدمي، عندما دخلت القفص المصنوع من الحجر و الخشب حيث يتسلق الناقوس الكبير و معه الجلة، و هو يزن ألفاً من الكيلوجرامات

و لقد مشيت و أنا أرتجف فوق الألواح الخشبية غير المرتبطة تماماً ببعضها، و أنظر من بعيد إلى هذا الناقوس المعروف جيداً لأهل باريس و أطفالها، ولاحظ في رعب أن المنحنيات المغطاة بالقرميد التي تحيط بالناقوس كانت في مستوى قدمي، و كنت أرى في أثناء ذلك، و كأنني طير طائر في الهواء، المارين بميدان كنيسة "نوتردام" و كأنهم النمل!

و فجأة، دوى الناقوس الضخم فهز صوته الراءع الهواء، و جعل البرج الثقيل يرتج، و كانت "الأرضية" الخشبية تتفز فوق العروق، و كدت أقع على ظهري من جراء هذا الصوت، فترنحت بعض الشيء و أوشكت أن أنزلق عن الإطار المنحدر المصنوع من القرميد، فنمت فوق الألواح الخشبية من فرط الرعب و أنا أحضنها بذراعي في عنف و لا أقوى على التنفس مع هذا الرنين الضخم الذي يجلجل في أذني، و تحت عيني هذه الهوة السحرية، و هذا الميدان العميق حيث كان يتقابل عدد كبير من المارة الهدائين الآمنين الذين كنت أحسدهم في تلك اللحظة على ما هم فيه حسناً! إنه ليبدو لي الآن أنني لازلت في برج الناقوس الكبير بكنيسة "نوتردام". ذلك أنني أسمع في هذه الساعة نفس الدوى و أحس بنفس الذهول، فهناك شيء ما شبيه بدقائق الأجراس يهز أعماق مخي، و لم أعد ألمح من حولي هذه الحياة الممهدة الهدائة التي تركتها وراء ظهري، و التي لا يزال الآخرون يدرجون في طريقها، لم أعد ألمحها إلا من بعيد، من بعيد جداً، و من خلال هوة سحرية

### الفصل 37

إن مبني المحافظة مقبض كثيف!

فسقه الخشن المدبب، و برجه الصغير ذو الشكل الغريب، و مزولته الكبيرة البيضاء، و طبقاته ذوات الأعمدة الصغيرة، و نوافذه التي تعد بالمئات، و درجات سلامه التي تأكلت من الخطوات، و قوساً البناء اللذان يحفان به من يمين و من شمال، كل هذا يجعله جاثماً هناك، كساحة

الإعدام، مظلماً كثيراً تنهش الشيخوخة وجهه، و أسود جداً إلى حد أنه يبدو  
قاتماً في الشمس!

و في الأيام التي يتم فيها تنفيذ أحكام الإعدام، تقذف أبوابه جميعاً رجال  
الشرطة و يطأ كل من في نوافذه على الشخص المحكوم عليه بالموت. و  
في المساء تظل مزولته التي بينت لي الساعة مضيئة في واجهته المظلمة

### الفصل 38

الساعة الآن الواحدة و الربع  
و هذا هو ما أشعر به الان:  
إني أقاسي صداعاً شديداً، و برودة مروعة في كلتي، و جبيني ملتهب، و  
كلما وقفت أو انحنيت بدا لي أن هناك سائلًا يجري في مخي فيجعله  
يضطرب في غلاف جمجمتي  
إنني أحس برجة محمومة، و من وقت إلى آخر يسقط القلم من يدي كما  
لو كانت تهزني صدمات كهربائية  
إن عيني ملتهبتان كما لو كنت غارقاً في دخان و أشعر بألم هائل في  
مرفقى  
لسوف أشفى بعد انقضاء ساعتين و خمس و أربعين دقيقة!

### الفصل 39

إنهم يقولون أن المقصولة لا شيء، و أن المرء لا يتألم، و أنها نهاية حلوة،  
و أن الموت بهذه الطريقة يكون مختصراً بسيطاً  
آه! إذن ما هذا الاحتضار الذي دام ستة أسابيع؟ و ما هذه الحشرجة التي  
دامت يوماً بأكمله؟ و ما هي إذن آلام هذا اليوم الذي لن يعوض و الذي  
يمر بسرعة بالغة و في بطء بالغ كذلك؟ و ما هو إذن هذا السلم من العذاب  
الذي ينتهي إلى المشنقة؟  
و ليس هذا كله ألمًا في الظاهر!  
أو ليست هي نفس التقلصات العنيفة حين يفرغ الدم قطرة قطرة، و حين  
ينطفئ الذكاء فكرة بعد فكرة؟

ثم إنهم يقولون أن المرء لا يتالم من المقصلة، فهل هم واثقون من ذلك؟ و من ذا الذي قال لهم هذا الكلام؟ و هل حدث قط أن رأساً مقطوعاً وقف يقطر دماً على حافة السلة ليصبح في الجمهور قائلاً: "إن هذا لا يحدث أبداً"

هل حدث أن أمواتاً ماتوا بهذه الطريقة، عادوا ليقدموا لهم الشكر و ليقولوا لهم: "إن اختراعكم هذا اختراع عظيم، و عليكم أن تستمروا في استعماله! إنه آلة جيدة!"

و هل هو "روبسبيير" الذي قال هذا أو "لويس السادس عشر"؟  
كلا! لا شيء من هذا! إن الأمر ينتهي في أقل من دقيقة، بل في أقل من ثانية! - فهل وضعوا أنفسهم قط، و لو في الخيال، موضع الشخص الذي يكون هناك عندما تهوي السكين الثقيلة فتعض اللحم و تقطع العروق، و تكسر مفاصل الرقبة و عظامها؟

و لكن ماذا؟ .. ماذا تقولون؟ تقولون إنها نصف ساعة! و أن الألم يختصر! . فيها للهول!

#### الفصل 40

من الغريب حقاً أنني لا أكف عن التفكير في الملك! و مهما فعلت و مهما هزرت رأسي، فإن هناك صوتاً يتعدد في أذني و يقول لي على الدوام: "هناك في نفس هذه المدينة، في نفس هذه الساعة، و لكن في قصر آخر،<sup>20</sup> رجل لديه كذلك حراس على كل أبوابه، و هو شخص فريد من نوعه بين أفراد الشعب من أمثالك مع هذا الفارق الوحيد، و هو أنه مرتفع بقدر ما أنت منخفض. إن حياته كلها دقيقة دقيقة ليست إلا مجدًا و عظمة و سروراً و متعة، و كل شيء من حوله عبارة عن حب و احترام و تمجيل. إن أكثر الأصوات ارتفاعاً لتتحفظ حينما تتحدث إليه و تتحنى أمامه أكثر الجبارات فيها و فخرها، و لا تقع عيناه إلا على الحرير و الذهب، و هو يرؤس في هذه اللحظة اجتماعاً من المجتمعات الوزراء فيقره

<sup>20</sup> أي في قصر آخر غير هذا القصر الذي جعلوا منه سجناً و داراً للقضاء

الجميع على رأيه، أو أنه يفكر في رحلة الصيد التي سيقوم بها غداً، أو في حفل هذه الليلة الراقص، و هو على يقين من أنه سيتم في الساعة المحددة له، و يترك للأخرين أمر تدبير ملذاته. حسناً! إن هذا الرجل مثلك من لحم و عظم! - و لكي تنهار المقصلة الرهيبة في نفس اللحظة و يعاد إليك كل شيء: حياتك، و حرثتك، و ثروتك، و أسرتك، يكفي منه أن يكتب بهذا القلم الحروف السبعة التي يتكون منها اسمه في ذيل قصاصة من الورق، أو تقابل عربته الملكية العربية التي ستحملك إلى ساحة الإعدام! - و هو رجل طيب، و قد لا يكون راغباً في أكثر من هذا العمل الطيب، و لكن هذا لن يحدث!

#### الفصل 41

حسناً إذن! لنكن شجاعاء مع الموت. و لتقابل هذه الفكرة الرهيبة بشجاعة، ولنواجهها وجهاً لوجه. لنسأل ما هو الموت، و لنعرف ماذا يريده منا، ولنقلب هذه الفكرة على جميع وجوهها، ولنقرأ الغيب، ولننظر مقدماً في

القبر

إنه ليبدو لي أنني عندما ستغمض عيناي، سأرى ضوءاً باهراً و هوة سحرية من النور تundo خلالها روحى إلى ما لا نهاية، و يبدو لي أن السماء سوف تكون مضيئة من تلقاء نفسها، و أن النجوم ستكون فيها كأنها نقط سوداوات! نعم، يبدو لي أن النجوم ستبدو كأنها نقط سوداوات على قماش ذهبي اللون، بدلاً من أن تكون كما تتراءى لأعين الأحياء، قصاصات من ذهب على قطيفة سوداء

أو قد تكون يا لشقاني - هوة مروعة، جدرانها مبطنة بالظلمات، أهوي فيها بلا توقف و أنا أرى أشباحاً تتحرك في الظلام!

أو أنني قد أجد نفسي بعد أن أستيقظ من ضربة المقصلة فوق مساحة ما مسطحة رطبة، و أنا أزحف في الظلام، و أدور على نفسي مثل الرأس الذي يتدرج، و يخيل إلي أنه ستكون هناك ريح صرصر عاتية تدفعني بلا هواة، فاصطدم هنا و هناك برووس أخرى تتدرج، و أنني سامر

أحياناً في طرقه بمستنقعات و جداول و أنهار بها سائل فاتر مجهول، و أن كل شيء سيكون حالك السوداء، و أن عيني حينما تتجهان في دورانهما إلى أعلى فلن تريا إلا سماء مظلمة تضغط عليهما طبقاتها الكثيفة، و إلا قباباً، ضخمة من دخان أسود كالظلمات، ترى في النهاية على بعد سبعمائة، و أن عيني سوف تريان كذلك شرراً صغيراً أحمر يتطاير في الظلام، لا يلبث عندما يقترب منها أن يتحول إلى طيور من نار، و ستظل الحال على هذا النحو إلى الأبد

و قد يحدث أحياناً في مواقف معينة أن يجتمع أولئك الذين ماتوا في ساحة الإعدام خلال ليالي الشتاء السوداء في الميدان الذي هو خاص بهم، و لسوف يكون هذا الجمع جمهوراً شاحباً داماً، و لن تختلف عن أن تكون بينهم، و لن يكون هناك قمر و سوف تتحدث في أصوات خافتة. إن مبني المحافظة سوف يكون هناك بواجهته العتيقة، و سقفه الممزق، و مزولته التي كانت لا ترحم أحداً. و سوف تكون في الميدان مفصلة من جهنم ي عدم بها أحد الشياطين جلداً، و سوف يتم ذلك في الساعة الرابعة صباحاً، و سوف تنجهر بدورنا من حوله!

نعم، قد يكون الأمر كذلك. و لكن إذا عاد هؤلاء الموتى فعلى آية صورة يعودون؟ و ما الذي يحتفظون به من أجسامهم الناقصة المشوهة؟ و ماذا سوف يختارون؟ هل سيكون شبح كل منهم رأساً أم جذعاً؟

واسفاه! ترى ماذا يفعل الموت بأرواحنا؟ و أي شكل يدعه لها؟ ما الذي يأخذه منها أو يعطيها إياه؟ و أين يضع الموت الروح؟ و هل يجعل لها في بعض الأحيان عينين بشريتين كي تنتظرا إلى الأرض و تبكياً؟

آه! إلى بقسيس! أريد قسيساً يعرف هذا، و يحدثني عنه! أريد قسيساً و صليبياً أقبله!

رباه! إنه دائمًا نفس القسيس!<sup>21</sup>

## الفصل 42

<sup>21</sup> يقصد نفس الكاهن الذي كان معه منذ قليل، و قال عنه أن كلامه فاتر لا حرارة فيه و لا تأثير له

لقد رجوته أن يتركني فأنام، و أقيت بنفسي على السرير، و كان دمي كله قد صعد في الواقع إلى رأسي، فحملني هذا على النوم. كانت هذه نومتي الأخيرة من هذا النوع!

و رأيت في المنام أن الوقت كان ليلا، و خيل إلى أنني كنت في مكتبي مع اثنين من أصدقائي أو ثلاثة، لست أدرى من هم على وجه التحقيق و كانت زوجتي نائمة مع طفلتها في الغرفة المجاورة و كنا نتحدث أنا وأصدقائي في صوت خفيض، و كان ما يدور بيتنا من الحديث يبعث الخوف في أنفسنا

و فجأة، خيل إلى أنني أسمع صوتاً ما في الغرف الآخريات من المسكن! كان صوتاً خافتاً غريباً غير واضح!

و كان أصدقائي قد سمعوا هذا الصوت كما سمعته، فأنصتنا جميعاً: كان كأنه صوت قفل يفتح خلسة، أو مزلاج يسحب في صوت ضئيل و كان ثمة شيء يتلألأ أطراضاً: و هو أننا كنا خائفين. و حسبنا أن لصوصاً قد تسللوا إلى مسكننا في هذه الساعة المتقدمة جداً من الليل، فقررنا أن نذهب لنرى ما هناك. فنهضت من فوق مقعدي، و أخذت الشمعة في يدي، و تبعني أصدقائي واحداً في إثر الآخر

و اجترنا غرفة النوم المجاورة، و كانت زوجتي نائمة مع ابنتها، ثم وصلنا إلى غرفة الجلوس، و لكن لم يكن هناك شيء، كانت الصور مثبتة في إطاراتها الذهبية من فوق ستائر الحمراء، غير أنه خيل إلى أن الباب الذي بين غرفة الجلوس وبين غرفة المائدة ليس في مكانه المألوف و دخلنا غرفة المائدة و طوفنا بها باحثين فاحصين، و كنت أنا الذي يسير في الطليعة. كان باب السلالم مغلقاً تماماً و كذلك النوافذ. و عندما بلغت المدفنة رأيت أن صوان الملابس كان مفتوحاً، و أن بابه كان مشدوداً إلى زاوية الجدار، كما لو كان المقصود هو إخفاء ذلك. فدهشني هذا، و اعتقדنا أن هناك شخصاً ما وراء هذا الباب

فأمسكت هذا الباب بيدي كي أعيده إغلاقه و لكنه قاومني. فعجبت و جذبته  
بقوة هي أكبر من سابقتها، و فجأة استجاب الباب، و اكتشفنا خلفه امرأة  
عجوزا قصيرة القامة متسلية النراugin و مغمضة العينين، قد وقفت بلا  
حراك كما لو كانت ملتصقة بركن الجدار!

كان ذلك منظرا مفزعا يقف له شعر رأسي عندما أفكر فيه!  
و قلت سائلا هذه العجوز: "ماذا تفعلين هنا؟"

فلم تحر جوابا، و عدت أسألها قائلا: "من أنت؟"

فلم تجبني كذلك و لم تبد حراكا و ظلت مقلة العينين  
و عندئذ قال لي أصدقائي: "إنها دون شك شريكة هؤلاء الذين تسللوا إلى  
بيتك لأغراض شريرة، و لا بد أنهم قد فروا حين سمعونا نقترب منهم، و  
لم تتمكن هي من الهرب فاختبأت هنا!"

فسألت المرأة من جديد، و لكنها ظلت لا تتكلم و لا تتحرك و لا تنظر! و  
دفعها أحدها فوقعت على أرض الغرفة، و قعـت كتلة واحدة، كأنها قطعة من  
الخشب أو شيء جامد لا حياة فيه!

و هززناها من قدميها، ثم أوقفها اثنان من بيننا، و جعلاها تستند من جديد  
إلى الجدار، غير أنها لم تبد ما يدل على أنها على قيد الحياة! فصرخنا في  
أذنها و لكنها بقيت صامتة كأنها صماء!

و نفذ صبرنا مع ذلك، و كان رعبنا ممزوجا بالغضب، فقال لي واحد من  
أصدقائي: "ضع الشمعة تحت ذقنها!"

فوضعت فتيل الشمعة الموددة تحت ذقنها، و عندئذ فتحت المرأة عينا  
واحدة، ففتحتها قليلا، فكانت عينا خاوية لا تنتظر، مخيفة لا حياة فيها!  
فأبعدت الشمعة عنها و قلت لها: "آه! أخيرا! هلا أحببتني أيتها الساحرة  
العجوز؟ من تكونين؟"

و انطبقت عين المرأة بحركة تلقائية فقال الآخرون: "إنها تبالغ كثيرا في  
هذه المرة! أعد الشمعة مرة أخرى إذ يجب أن نحل عقدة لسانها!"

فأعادت الشمعة تحت ذقن العجوز، ففتحت عينيها في بطء ونظرت إلينا جميعاً واحداً بعد الآخر، ثم انحنت فجأة ونفخت في الشمعة بنفس بارد، وأحسست في نفس اللحظة بثلاث أسنان حادة تنغرس في يدي في الظلام! واستيقظت عندئذ من نومي مذعوراً وقد غمر جسمي عرق بارد. و كان القيس الطيب جالساً عند أسفل سريري يتلو بعض الصلوات

فسألته قائلاً:

– هل نمت طويلاً؟

فأجابني بقوله:

– نمت ساعة يا بني. لقد أحضروا لك ابنته و هي هنا تنتظرك في الحجرة المجاورة، ولم أشا أن يوقفك أحد  
فضحكت قائلاً:

– آه! ابنتي؟ ليأتوني بابنتي!

## الفصل 43 ماري ابنتي

إنها نصرة وردية اللون ذات عينين كبيرتين، إنها لجميلة حقا!  
لقد ألبسوها ثوبا يلامها تماما

أخذتها ورفعتها بين ذراعي، ثم أجلسها على ركبتي وقبلت شعرها  
و ساءلت نفسي: ترى لماذا لم تحضر معها أمها؟ الآن أمها مريضة، و  
ذلك جدتها؟ حسنا!

كانت تنظر إلي في دهشة بادية، بينما أخذت أداعها، واحضنها، و  
التهما بقلباتي و هي تتركني أفعل كل ذلك، غير أنها كانت بين لحظة و  
آخرى تلقى نظرة حازمة على خادمتها، التي كانت تبكي في ركن الغرفة  
و استطعت أخيرا أن أتكلم فقلت لها:

- "ماري!" يا صغيرتي "ماري"

و كنت في تلك اللحظة أضمها في عنف فوق صدرِي المتنفس بالدموع  
المائبة، فصاحت صيحة صغيرة وقالت لي:

- آه! إنك تؤلمني يا سيدي!

"سيدي؟!" ها هو ذا عام تقريبا قد انقضى لم ترني خلاله هذه الطفلة  
المسكينة! لقد نسيتني، نسيت وجهي و كلامي و لهجتي، ثم ... من ذا الذي  
يستطيع أن يعرفني و أنا بهذه اللحية، و في هذه الثياب، و في مثل هذا  
الشحوب؟ آه! أهكذا محبت سريعا من هذه الذاكرة، و هي الذاكرة الوحيدة  
التي كنت أود أن أعيش فيها! آه! أبمثل هذه السرعة لم أعد أبا؟ أنا الذي  
 قضي على ألا أسمع قط بعد الآن هذه الكلمة: كلمة "بابا"! هذه الكلمة التي  
هي من لغة الأطفال، و التي تبلغ من العذوبة حدا لا يمكن أن تبقى معه في  
ذاكرة الرجال!

و مع ذلك، فقد كنت لا أتمنى إلا أن أسمع هذه الكلمة من هذا الفم مرة  
أخرى، مرة واحدة فحسب ... هذا هو كل ما كنت أريده في مقابل الأربعين  
سنة التي سياخذونها من عمري!

قلت لها و أنا أخذ بيديها الصغيرتين في يدي:

- أصغي إلى يا "ماري" .. ألا تعرفيني؟  
فنظرت إلى بعينيها الجميلتين ثم أجابت قائلة:  
- آه! حسنا .. إنني لا أعرفك!  
فعدت أكرر القول:

- أنظري إلى جيدا .. كيف لا تعرفين من أنا؟  
قالت لي:

- بلى، بلى .. إنك سيد  
واأسفاه! هاهو ذا امرؤ لا يحب من أعمق قلبه إلا مخلوقاً واحداً في هذا  
العالم، يحبه بكل جوارحه، ويجده أملاكه، وينظر إليه، ويراه و يحدثه و  
يرد عليه .. ولكن هذا المخلوق لا يعرفه، إنني لا أريد عزاء إلا منها،  
 فهي الإنسان الوحيد الذي لا يعرف أنني في حاجة إلى العزاء، لأنني أوشك  
أن أموت!

و استأنفت حديثي معها قائلة:  
- ألك أب يا "ماري"؟

- نعم يا سيدتي

- حسنا، و أين هو؟

فرفعت إلى عينين واسعتين تطل منهما الدهشة وقالت:  
- ألا تعلم إذن؟ لقد مات يا سيدتي!

و ما إن قالت هذا حتى تصلبت ذراعاي على ماري لهول ما سمعته  
فصرخت، و كادت تسقط مني على الأرض! بينما كنت أقول لها:

- مات! أتعرفين يا "ماري" ما معنى أنه مات?  
فأجابتني قائلة:

نعم يا سيدتي .. إنه في الأرض وفي السماء  
ثم استطردت تقول من تلقاء نفسها: "إنني أصلى من أجله صباحاً و مساءً و  
أنا على ركبتي ماما"

فطبعت قبلة على جبينها و قلت لها:

- فولي لي صلاتك يا "ماري"  
 - لا أستطيع يا سيدى. إن الصلاة شيء لا يقال بالنهار. تعال عندنا في  
 البيت هذا المساء و أنا أقولها لك  
 و كان هذا حسبي لكنني قاطعتها قائلًا:  
 - "ماري" أنا والدك!  
 - آه!  
 فعدت أقول:  
 - أتحبين أن أكون والدك؟  
 فأشاحت الطفلة عني بوجهها ثم قالت:  
 - كلا .. لقد كان والدي أجمل منك كثيراً!  
 فأخذت أغرقها بقبلاتي و دموعي، فحاولت أن تفلت من بين ذراعي، و  
 هي تصيح قائلة: "إنك تؤلمني بلحيتك!"  
 و عندئذ أجلستها ثانية على ركبتي و أنا أحرسها بعيني ثم سألتها قائلًا:  
 - أتعرفين القراءة يا "ماري"؟  
 - نعم، أعرفها جيداً، إن والدتي تجعلني أقرأ حروفًا أكتبها بنفسي  
 فقلت لها و أنا أريها ورقة كانت تمسك بها مجده في إحدى يديها  
 الصغيرتين:  
 - أريني كيف .. هيا اقرئي قليلاً!  
 فهزت رأسها الجميل و قالت:  
 - حسناً! لست أعرف إلا قراءة الحكايات  
 فعدت أقول لها:  
 - استمري في المحاولة .. أريني .. اقرئي  
 فنشرت الورقة و أخذت تتهجى مشيرة بأصابعها:  
 - ح .. ك .. حك .. م .. "حكم"<sup>22</sup>

---

<sup>22</sup> "حكم": كانت هذه أول كلمة مكتوبة على الورقة التي بين يديها، وكانت صورة من حكم الإعدام الصادر عليه

فانتزعت الورقة من بين يديها، فقد كان ما تقرؤه هو نص الحكم الصادر على بالإعدام، و كانت خادمتها قد اشتراطت هذه الورقة بنصف مليون، أما أنا فقد كلفتني غاليا!

ليست لدي كلمات أستطيع بها أن أعبر عما كنت أقصيه في تلك اللحظة! كان عنفي قد روعها وأخافها وكانت تبكي تقربياً. و فجأة قالت لي: "أعد إلي ورقي إذن لألعاب بها! عجا!"

فأرجعت الطفلة إلى الخادمة و أنا أقول:

- خذيها من هنا!

ثم تهالكت على مقعدي مكتتبًا يائسا شارد اللب! يجب عليهم أن يحضروا الآن فلم أعد أتمسك بأي شيء إذ انقطع آخر وتر من أوتار قلبي، و صرت مهينًا لما سيفعلونه بي على الفور!

#### الفصل 44

إن القيسис رجل طيب القلب، و كذلك الجندي الحارس، و أحسب أن كل واحد منهم قد ذرف دمعة حينما قلت للخادمة: "خذيها من هنا!"

لقد قضي الأمر الآن، فيجب علي أن أتصلب في أعماق نفسي، و أن أفك بثبات في الجlad، و في العربية، و الجنود، و الجمهور المحتشد على الجسر، و في المحتشدين على رصيف نهر السين، و في الذين يقفون أمام النوافذ، و فيما سوف يعد خصوصاً من أجلي في تلك الساحة، ساحة الإعدام المظلمة التي يمكن أن ترصف بما هو من الرؤوس

أحسب أنه لا تزال أمامي ساعة كي ألف كل ذلك

#### الفصل 45

إن كل هذا الشعب سوف يضحك و يصدق. و بين كل هؤلاء الرجال الأحرار الذين لا يعرفهم الجنادون، و الذين يسرعون في مرح لمشاهدة تنفيذ حكم الإعدام، بين كل هذه الرؤوس التي ستغطي الميدان، هناك أكثر من رأس كتب عليه أن يتبع رأسي إن عاجلاً أو آجلاً إلى السلة الحمراء،

و هناك أكثر من شخص من هؤلاء الذين يأتون من أجل سوف يأتون في  
يوم من الأيام من أجل أنفسهم!

بالنسبة لهؤلاء الأشخاص المنحوسين، هناك نقطة معينة في ساحة  
الإعدام، هي عبارة عن مكان مشئوم و مركز جاذبية و فخ منصوب، و هم  
يحومون حوله و يحومون إلى أن يتربوا فيه!

#### الفصل 46

ابنتي الصغيرة "ماري!" - لقد أعادوها لتلعب .. إنها تنظر إلى الجمهور  
من خلال نافذة العربة التي تقلها و لم تعد تفكر في هذا "السيد!"  
قد يتاح لي كذلك بعض الوقت لأكتب لها بعض الصفحات حتى تقرأها في  
يوم من الأيام، و تبكي بعد خمسة عشر عاما بدلًا من اليوم  
نعم، يجب أن تعرف "ماري" قصتي مني و أن تعرف السبب في أن الاسم  
الذي أتركه لها يقطر دما!

#### الفصل 47 قصتي

كلمة من الناشر: لم نجد إلى الآن الورقات الخاصة بهذا الفصل من  
الكتاب. وقد يكون المحكوم عليه بالإعدام لم يجد متسعاً من الوقت لكتابتها  
كما ستبينه الصفحات التالية، و كان الوقت قد أزف عندما خطرت له هذه  
الفكرة

## الفصل 48 إلى ساحة الإعدام

من غرفة بدار المحافظة! إنتي هنا إذن! لقد تمت الرحلة البغيضة و هاهي ذي ساحة الإعدام، و هاهو ذا الشعب الرهيب يضج بالصراخ تحت نافذتي و ينتظرني و هو يضحك!

و قد حاولت جهدي أن أتشجع أو أستجمع قواي و لكنى كنت أحس دائماً بأن قلبي يخوننى، و قد خاننى أكثر، و كاد يكف عن الخفقان عندما رأيت هاتين الذراعين الحمراوين، و في نهايتهما هذا المثلث الأسود،<sup>23</sup> تطالعني من فوق الرؤوس و قد نصب كلها لي بين مصباحين على رصيف النهر، فطلبت أن أتعرف اعترافاً أخيراً، فأحضروني إلى هنا، و ذهباً لاستدعاء أحد وكلاء النائب العام، و هأنذا أنتظره و سوف أكسب بهذا بعض الوقت! و هذا ما حدث:

دققت الساعة ثلاثة دقائق، عندما جاءوا ليخطروني بأن الوقت قد حان، فارتجمت كما لو كنت أفكر في شيء آخر منذ ست ساعات أو منذ ستة أسابيع، بل منذ ستة أشهر، لقد كان لهذا في نفسي وقع سيئ لم أكن أنتظره و ساقوني أمامهم فاجتررت الدهاليز و نزلت السالم ثم دفعوني بين نافذتين صغيرتين بالطبق الأرضي في غرفة ضيقة مظلمة سقفتها به قباب، و يصل إليها ضوء خافت من نور يوم معتم مطير. كان الضباب كثيفاً، و كان ثمة مقعد في وسط الغرفة و أمروني بالجلوس فجلست و كان هناك، عدا القيس و الحراس، رجال يقفون إلى جوار باب القاعة و بطول الجدران، و كان هناك كذلك ثلاثة رجال آخرين كان أولهم - و هو أطولهم قامة و أكبرهم سنا - بدينًا ذا وجه أحمر، و يرتدي "ردنجوتا" و قبعة غير منتظمة الشكل لها زوايا ثلاثة. لقد كان هو!

<sup>23</sup> ذراعاً المقصلة و سكينها

نعم، كان هو الجlad بعينه، خادم المقصلة، و كان الرجلان الآخران  
خادمين له شخصيا!

و ما إن جلست حتى اقترب مني الرجلان الآخران من الخلف و كأنهما  
قطان، و فجأة، أحسست ببرودة الصلب تسري في رأسي و صلصلة  
المقصات تدوي في أذني، وأخذ شعري الذي كانوا يقصونه كيما انفق،  
يتساقط خصلا على كتفي، فكان الرجل البدين ذو القبعة المثلثة الأركان  
ينفضه في رفق بيده الضخمة

و من حولي كان يدور الحديث في صوت هامس  
و كانت تترامي إلى أذني من الخارج جلة عظيمة كأنها رعد يتدفق مع  
الهواء، فحسبت في أول الأمر أنها صادرة من النهر، و لكنى ما لبثت أن  
سمعت ضحكات عالية، فأدركت أن الجلة كانت منبعثة من الجماهير  
و كان هناك شاب يقف إلى جوار النافدة و قد أخذ يكتب بالقلم فوق حافظة  
أوراقه، فسأل أحد الحراس قائلا:

– ما هذا الذي يفعلونه الآن بالمحكوم عليه؟  
فأجابه الحراس بقوله:

– هذه زينة المحكوم عليه بالموت!

فهمت عندئذ أن هذا سيظهر غدا في الصحف

و فجأة، خلع لي أحد خدمي الجlad سترتي، و أخذ الآخر يدي اللتين كانتا  
تتدليان إلى جنبي و جذبهما وراء ظهري ثم أحسست بالحبيل و هو يلتف  
حول معصمي في بطء. و في نفس اللحظة كان الخادم الأول يفك ربطه  
عنقي، لكن قميصي "الباتستا" و هو الخرقة الوحيدة التي تبقيت لي مما  
كنت أرتديه فيما مضى – جعله يتتردد لحظة ثم شرع الرجل في قص  
"ياقته"

فارتجفت لهذه الحيطة الرهيبة حينما مس المقص الصلب رقبتي، و ارتعد  
مرفقاي في عنف ظاهر و ند عنى أني مكتوم ارتعشت له يدا "صبي"  
الجلad

و قال لي الرجل:

- سامحني يا سيدي ! هل آمنتك؟

إن هؤلاء الجلادين ذوو شعور رقيق للغاية

و كان صرخ الجماهير يتزايد في الخارج

و عرض علي الرجل البدين ذو الوجه الأحمر أن أشم منديلًا مشبعا

بالخل، فقلت له بأعلى صوت استطعته: "شكراً، هذا لا جدوى منه فانا

أشعر باني في حالة جيدة"

و عندئذ انحنى أحدهم، و قيد قدمي بحبل رفيع رقيق كان لا يتيح لي أن

أخطو إلا خطوات ضيقة للغاية، ثم ربّطوا هذا الحبل الأخير بحبل يدي

ثم ألقى الرجل البدين بالسترة على كتفي و ربّط كميها معاً من أسفل ذقني.

كان كل ما كان ينبغي أن يتم هنا قد انتهى

و في تلك اللحظة، اقترب مني القسيس بصلبيه و قال لي: "هيا يابني"

فامسك بي خادماً الجlad من تحت إبطي فنهضت و مشيت. كانت خطواتي

خائرة منها، كما لو كانت كل ساق من سافي لها ركبان!

و فتح الباب الخارجي على مصراعيه في تلك اللحظة، فاندفع نحو فجاءة

و أنا في الظلام، صياح الجماهير الغاضب مختلطًا بالهواء البارد و

الضوء الأبيض. و رأيت فجاءة و دفعه واحدة من خلال المطر و عبر

النافذة الصغيرة المعتمة آلافاً مؤلفة من الرؤوس، رؤوس الشعب الذي

تكدّس بعضه إلى جانب البعض في غير نظام، و هو يصبح من فوق سلم

المحافظة الكبير. و كان هناك إلى اليمين عند عتبة الباب تماماً صف من

فرسان الدرك على ظهور جيادهم التي لم يكن يبدو لي منها سوى

صدورها و أقدامها الأمامية من خلال الباب المنخفض، و كانت هناك في

مواجهتي سرية من الجنود في زي الميدان، كما ظهرت إلى اليسار

مؤخرة عربة (كارو) كان يرتكز عليها سلم غليظ خشن! فكان هذا كله

لوحة كئيبة تتمشى تماماً مع باب السجن!

و كنت قد استطعت أن أحفظ بشجاعتي حتى هذه اللحظة الرهيبة، فخطوت ثلاث خطوات إلى الأمام، و ما كدت أبدو عند باب القاعة، حتى علا صياح الجماهير قائلاً: "هذا هو! هذا هو! هاهو ذا يخرج أخيراً!" و كان أقربهم إلى مكاني يصفقون، و مهما أحب الشعب ملكاً فلن يحتفي به مثل هذه الحفاوة

و كانت العربية عربة (كارو) عادية يجرها جواد هزيل و كان سائقها يرتدي حلقة زرقاء بها رسوم حمراء اللون شبيهة بثياب تجار الخضر حول سجن "بستر"

و صعد الرجل البدن ذو القبعة المثلثة الأركان إلى العربية أولاً، و كان الصبية المتعلقون بالسور الحديدي يصيحون لمرأه قاتلين: "أهلاً و سهلاً بالسيد شمشون" ثم تبعه إلى العربية أحد خدميه، فعاد الصبية يصيحون من جديد: "مرحى يا ماردي!" و جلس الرجلان على مقعد العربية الأمامي ثم حان دوري، فصعدت إلى العربية في مظهر ثابت بعض الشيء. و في تلك اللحظة قالت امرأة كانت تقف إلى جوار الجنود: "إنه على ما يرام!" و منعني هذا الثناء المرروع شيئاً من الشجاعة، و جاء القسيس ليجلس إلى جواري و كانوا قد أجلسوني على المقعد الخلفي و ظهري إلى جواد العربية، فارتجم بدني لهذه اللفتة الأخيرة! إنهم يبدون إنسانية في مثل هذه الأمور

و أردت أن أنظر حولي. كان أمامي جنود و من خلفي جنود، ثم الجماهير .. نعم، جماهير ثم جماهير ثم جماهير: لقد كان هناك بحر من الرؤوس يغمر الميدان!

و كانت كوكبة من فرسان الدرك في انتظاري عند باب سور المحافظة الحديدي. و أصدر الضابط أوامرها، فتحركت العربية مع الموكب كما لو كان صياح الجماهير قد دفعها إلى الأمام و اجترنا الباب الحديدي، و ما كادت العربية تتعطّف في اتجاه قنطرة "أو شانج" حتى انفجرت الضوضاء في الميدان، من الأرض إلى أسطح

المنازل، و رددتها القنادر و أرصفة نهر "السين" في دوي كأنه زلزال  
يهز الأرض هزا في غير هوادة و لا رحمة!

و في تلك اللحظة، انضم الدرك، الذي كان ينتظري، إلى قوة الحراسة  
و كانت آلاف الأفواه تصيح معاً، تماماً كما يحدث عند مرور الملك:  
"اخلعوا قبعاتكم! اخلعوا قبعاتكم!"<sup>24</sup>

فضحكت أنا كذلك ضحكة كثيبة و قلت للقسيس: "هم القبعات .. و أنا  
الرأس!"<sup>25</sup>

وأخذ الموكب يسير خطوة خطوة. و كان رصيف الزهور تتبعه منه  
روائح زكية، و كان اليوم يوم السوق، فتركـت بائعـات الزهور زهورـهن  
من أجلي أنا

و هناك في مواجهتنا، قبل البرج المربع الجاثم في ركن دار المحافظة  
بقليل، حانـات كان الطابق الأرضي منها يعـج بالمتفرجيـن الذين ينعمون  
بـأماكنـهم الجـميلـة، و كان أكثرـهم من النساء! لا بد أن يكون هذا اليوم يومـاً  
طـيبـاً بالـنـسـبة لـأـصـحـابـ الـحانـاتـ! فقد كانوا يـؤـجـرونـ المناـضـدـ وـ المـقـاعـدـ وـ  
الـمـنـصـاتـ وـ الـعـربـاتـ (الـكارـوـ)، وـ كانـ كلـ شـيءـ مـزـدـحـماـ بالـمـتـفـرـجيـنـ، وـ  
كانـ بـائـعـاتـ الدـمـاءـ الـبـشـرـيةـ يـصـيـحـونـ بـمـلـءـ أـفـواـهـهـمـ قـائـلـينـ: "منـ ذـاـ الـذـيـ  
يرـيدـ مـكـانـ؟"

و تملـكيـ السـخـطـ عـلـىـ هـذـاـ الشـعـبـ، وـ وـدـدـتـ لوـ أـصـرـخـ فـيـ النـاسـ قـائـلاـ:  
"منـ مـنـكـمـ يـرـيدـ مـكـانـ؟"

و مع ذلك فقد أخذـتـ العـربـةـ تـتـقدـمـ، وـ فيـ كـلـ خـطـوـةـ كـانـتـ تـخـطـوـهـاـ كانـ  
الـجمـهـورـ يـنـفـضـ منـ وـرـانـهـاـ وـ كـنـتـ أـرـىـ بـعـيـنـيـ الشـارـدـتـيـنـ أـفـواـجـاـ منـ  
الـنـاسـ، وـ هيـ تـسـارـعـ إـلـىـ التـجـمـعـ فـيـ مـوـاضـعـ أـخـرىـ أـبـعـدـ إـلـىـ الـأـمـامـ فـيـ  
الطـرـيقـ الـذـيـ يـمـضـيـ فـيـ مـوـكـبـيـ

<sup>24</sup> لتحية الذاهب إلى الموت عند مروره

<sup>25</sup> أي هم يخلعون قبعاتهم و أنا سيخلع رأسي!

و حينما بدأنا نمر فوق قنطرة "أو شانج" أقيمت بطريق الصدفة نظرة ذات اليمين إلى الوراء، فاستقرت عيناي عند رصيف نهر السين من الضفة المقابلة على برج أسود منعزل قائم من وراء أسطح المنازل، و كان هذا البرج مزداناً بالنقوش، و كنت أرى في قمته تماثلين لوحشين من الحجر في جلسة جانبية. و لست أدرى ماذا دفعني إلى سؤال القسيس عن أمر هذا البرج

فأجابني الجlad بقوله: "إنه القديس جاك لا بوشيري"  
و لست أدرى كيف كان لا يفوتنـي شيء مما كان يدور من حولي رغم الضباب و رغم المطر الدقيق الأبيض الذي كان يملأ الهواء و كأنه خيوط نسيج العنكبوت، و كانت كل واحدة من هذه التفاصيل تصيب إلى نفسي عذاباً فوق عذاب. و لست أجد من الكلمات ما أستطيع به أن أعبر بما أشعر به من انفعالات

و في نحو منتصف قنطرة "أو شانج" العريضة جداً و المزدحمة للغاية، و التي كنا نسير فوقها في صعوبة بالغة، تملكتـي رعب عظيم و خشـيت أن أغـيب عن الوعي. يـالهـ من غـرورـ أخـيرـ! فـحرـصـتـ عـندـذـ عـلـىـ أنـ أـعـمـلـ عـلـىـ تـشـرـيدـ ذـهـنـيـ حـتـىـ أـصـيرـ كـالـأـعـمـىـ الـأـصـمـ فـلـاـ أـرـىـ شـيـنـاـ وـ لـاـ أـسـمـعـ شـيـنـاـ عـدـاـ القـسـيسـ الـذـيـ كـنـتـ أـسـمـعـ كـلـمـاتـهـ فـيـ جـهـدـ جـهـيدـ تـخـالـلـهاـ ضـجـةـ الشعبـ

فتـناـولـتـ الـصـلـيبـ وـ قـبـلـتـ ثـمـ قـلـتـ: "رـحـمـكـ يـاـ إـلـهـيـ!" وـ حـاوـلتـ أـفـنيـ نـفـسـيـ فـيـ هـذـهـ الـفـكـرـةـ،ـ وـ لـكـنـ كـلـ "مـطـبـ" تـضـطـرـبـ فـيـهـ الـعـرـبـةـ الـصـلـبةـ كـانـ يـهـزـنـيـ هـزـاـ عـنـيـفـاـ ثـمـ أـحـسـتـ فـجـأـةـ بـبـرـودـةـ شـدـيـدةـ،ـ إـذـ كـانـ الـمـطـرـ قـدـ نـفـذـ مـنـ ثـيـابـيـ وـ غـمـرـ جـلـدـ رـأـسـيـ مـنـ خـلـالـ شـعـرـيـ الـذـيـ قـصـوـهـ قـصـيرـاـ وـ سـأـلـنـيـ القـسـيسـ قـائـلاـ:

– أـتـرـتـجـفـ مـنـ الـبـرـدـ يـاـ بـنـيـ؟

فـأـجـبـتـهـ بـقـوـلـيـ:

– نـعـمـ

و كنت للاسف لا أرتجف من البرد وحده!

و عند ناصية القنطرة أبدت بعض النساء عطفهن على لأنى شاب حديث السن. ثم مضينا قدما على طول الرصيف المشئوم، فبدأت لا أرى شيئاً و لا أسمع شيئاً! آه من كل هذه الأصوات و كل تلك الرؤوس التي تطل من النوافذ والأبواب وتحتشد أمام الحوانيت و فوق أعمدة النور، آه من كل هؤلاء المتفرجين النهميين القساة، هذا الجمهور الذي يعرفني كله و لا أعرف شخصاً واحداً منه، هذا الطريق المرصوف و المسور بالوجوه البشرية!! إنى كنت ثملاً مذهولاً متبلداً الذهن! إن كل هذه الأنظار التي تتطلع إليك شيء لا يمكن احتماله!

لقد كنت أترنح إذن فوق المقعد و لم أعد ألقى بالاً إلى شيء، حتى ولا إلى القسيس أو الصليب. و في غمرة الضجيج الذي كان يحيط بي، صرت لا أميز صيحات الشقة من صيحات السرور، أو أفرق بين الأنات و الضحكات، و لا بين الأصوات و الصخب، فكل ذلك كان ضجيجاً يدوي في رأسي كما يدوي الصدى في آلة من نحاس!

و كانت عيناي تقرآن لافتات الحوانيت بطريقة آلية، و تملكتني مرة فضول عجيب لأن أديرك رأسي لأنظر إلى أي مكان كنت أسير. كان هذا تحدياً آخرًا من العقل، غير أن جسمي لم يستجب لهذا و لبث عنقي مشلولاً كأنه مات مقدماً!

لقد لمحت فحسب، عن يسارِي من الجانب بعيداً عن النهر، برج كنيسة "نوتردام" الذي إذا نظر إليه من هذا الموضع، فإنه يحجب البرج الآخر، هذا البرج الذي كان العلم مرفوعاً عليه، و كان به جمعٌ غفيرٌ كان المفروض أنه يرى موكيبي في وضوح

و وصلت العربية المسير فأخذت تتقدم و تتقدم و الحوانيت تمر، و اللافتات تتتابع مكتوبة أو مرسومة أو مطلية بالذهب و كان الجمهور يضحك و يضرب الولل بالأقدام، أما أنا فكنت أترك العنان لنفسي كما يترك الناس عنان أنفسهم للأحلام

و فجأة، انقطعت سلسلة الحروانيت التي كانت تشغلي عيني عند ناصية ميدان و أصبح صياغ الجماهير أشد قوة و عمقا و انتشارا، و صار أكثر مرحًا كذلك، و توقفت العربية عن المسير بغنة فكفت أنكفي على وجهي فوق "أرضيتها" الخشبية، فسندني القسيس و هو يتمتم قائلا: "تشجع يا بني!"

و جاءوا عندئذ بسلم عند مؤخرة العربة فقدم إلى القسيس ذراعه فنزلت و خطوت خطوة واحدة ثم التفت إلى ما ورائي لأخطو بعدها خطوة أخرى، و لكنني لم أستطع، إذ كنت قد رأيت شيئاً رهيباً بين عمودين من أعمدة النور فوق الرصيف

آه! لقد كانت هي الحقيقة!

فتوقفت كما لو كنت قد ترتحت من أثر الصدمة، ثم صحت قائلاً في صوت مخنوق: "لدي اعتراف أخير أريد أن أفضي به" و لكنهم صعدوا بي إلى هذا المكان

و طلبت أن يتركوني كي أدون إرادتي الأخيرة، ففكوا وثاق يدي، و لكن الحبل هنا إلى جواري على أهبة الاستعداد، و بقتيه ملفوفة على قدمي!

## الفصل 49 الرجاء الأخير

لقد حضر منذ لحظة أحد القضاة أو مامور أو رجل من رجال القضاء لست أدرى أيهم. فطلبت إليه العفو عنِّي و أنا أضم يدي و أزحف على ركبتي. فاجابني الرجل قائلًا و هو يبتسم ابتسامة مشنوقة: "هل هذا هو كل ما ترید أن تقوله لي؟" فعدت أكرر قوله: "العفو عنِّي! العفو عنِّي! أو خمس دقائق فحسب .. على سبيل الرحمة!"

من يدرى؟ فقد يصل أمر العفو! و من الشناعة حقاً أن أموت هكذا و أنا في مثل هذه السن! و كثيراً ما رأينا أمر العفو يأتي في اللحظة الأخيرة و عمن يعفون يا سيدى إذا هم لم يعفوا عنِّي؟

يا لهذا الجلاad البغيض! لقد دنا من القاضي ليقول له إن تنفيذ الحكم يجب أن يتم في ساعة محددة، و إن هذه الساعة تقترب، و إنه كان مسنولاً، و ليقول له فوق هذا أن السماء كانت تمطر، و أن ذلك كان خليقاً بأن يجعل المقصلة تصداً!

فصحت قائلًا: "آه! دقيقة أخرى على سبيل الرحمة! دقيقة واحدة أنتظر فيها وصول العفو! و إلا فإبني سوف أدفع عن نفسي! سوف أعض!"  
فإنصرف القاضي و الجلاad، و بقيت وحدي!

وحدي مع جنديين  
أوه! يا للشعب الراهيب بصياغه الذي يشبه عواء الضياع! من يدرى ما إذا كنت أفلت منه؟ من يعلم ما إذا كنت أعتق؟ أو أن يصدر عفو عنِّي؟ ... من الحال ألا يصدر العفو عنِّي!

آه! يا للتعساء! يبدو لي أنهم يصعدون السلم! ...  
الساعة الآن الرابعة!